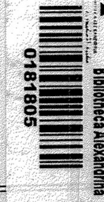
اليخو كاربنتيير

حق اللجوء

ترجمة

علي أشقر

قصص عالمية

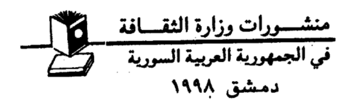


الإشراف الفني زهير الحمو

اليخو كاربنتيير



ترجمة
علي أشقر



العنوان الأصلي للكتاب:

CUENTOS
ALEJO CARPENTIER

ediciones huracan

حـــق اللجـــوء : قصـــص عالميـــة = Cuentos / أليخو كاربنتيير ؛ ترجمة علي أشقر . - دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٨ . - ٨٨ص؛ ٢٤سم .

١- ٨٦٣ كب ا ر ح ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- كاربنتيير ٥- أشقر

مكتبة الأسـد

الايداع القانوني : ع - ١٨٩٩ / ١١ / ١٩٩٨

مقدمة

ولد آليخو كاربنتيير في هابانا عام ١٩٠٤ . ترك مهنة الهندسة المعمارية ليلتحق بعالم الأدب الرحب. كان من المؤسّسين الأوائل لمجلة الطليعة. أودع السجن عام ١٩٢٧ . وقضى فترة طيّبة من حياته في باريس مشتغلاً بالنقد الفني والأدبي. أقام في كاراكاس من عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٩ ؛ وعاد الى كوبا بعد الثورة.

يعدّ كاتباً أمريكياً لاتينياً بقدر ماهو كوبي. لأن الشأن الأمريكي عامة، واللاتيني خاصة، شغله كثيراً. اذ كانت تثير حيرته الآراء السائدة حول أمريكا وحضارتها السابقة على كولومبوس. جدل هذه العلاقة بين القارة العجوز وغزو أمريكا، كما يحلو له أن يسميه، احتل مساحة هامة من أدبه الروائي.

هذه المجموعة تضم خمس قصص بعضها طويل.

القصة الأولى تتناول مصير المحارب الذي لايعلم أين يضع قدمه. فالحرب هي الحرب في كل العصور: يشعل أوارها المتنفّذون لتحقيق مآربهم، ويكون البسطاء وقوداً وأدوات لها. زمنها يمتد من العصر الإغريقي، فالحروب الصليبية وصولاً حتى مطلع العصور الحديثة.

أما القصة الثانية/ ماتصنعه الظلمات/ فهي تعبر عن لحظة فرح بموت طاغية. لكن لحظة الفرح هذه لاتتم. فما يلبث أن يحل زلزال يزعزع حياة الناس ويهزّ وجودهم.

القصة الثالثة: سفر نحو الأصول، يرجع فيها الكاتب بالزمان

والمكان والأشياء الى الوراء من خلال سيرورة شخص أو عدة أشخاص بشخص واحد. يعود بهم الى حالة العطالة والسكون: الى الرحم، والى الأس الأول للأشياء، بأسلوب عجيب.

القصة الرابعة: حق اللجوء. صورة من واقع أمريكا اللاتينية الى فترة خلت: واقع الانقلابات. ففي بلد أمريكي غير معيّن يقع انقلاب. يفر أحد المسؤولين الى احدى سفارات أمريكا اللاتينية، ويتمتع بحق اللجوء. ثم يحصل على جنسية ذاك البلد بعد أن أدّى خدمات جليلة له من خلال عمله في السفارة. ثم يصبح بعدئذ سفيراً لبلده الجديد في بلده القديم.

القصة الخامسة: الهاربان. صورة من صور القهر الذي عانى منه الزنوج في كوبا وغيرها من دول الكاريبي. تبيّن كيف يتراجع الوضع البشري ويهبط الى مستوى الحيوان، فيجد المرء في رفقته بديلاً للمجتمع الظالم.

المترجم

كأنه الليل

«وكان يسير كأنه الليل»

الإلياذة- النشيد الأول

بدأ البحر يخضرّ بين التلال التي لاتزال مغمورة بالظلام، حين أعلن بوق الحرس عن وصول السفن الخمسين السود التي أرسلها لنا الملك أغامنون. وحين سماع الاشارة، شرع الذين ينتظرون منذ أيام عديدة فوق بقايا البيادر، بانزال القمح الى الشاطىء حيث كنّا أعددنا المدحرجات لنقله الى متن السفن، ثم حتى أسوار القلعة.

نشبت مشادّات بيننا وبين البحّارة حين مسّ قاع السفن الرمل. فلطالما قيل لنا نحن المسّينيّين- أننا نفتقر لكل ذكاء فيما يتعلّق بالمهامّ البحرية؛ وقد حاولوا ابعادنا بمراديّهم[1] الطويلة. ناهيك عن أن الشاطىء غصّ بالأطفال الذين كانوا يندسّون بين سيقان الجنود ويعرقلون العمل، ويتشبثون بحوافّ السفن ليسرقوا بعضاً من حبّات البندق من تحت مقاعد الجذّافين. كانت موجات الفجر الصافية تتحطّم بين الصراخ والسباب والشجار بالقبضات دون أن يستطيع الوجهاء النطق بكلمات الترحيب. وأنا كنت أنتظر أمراً أكثر روعة وبهجة بلقائنا بهؤلاء الذين جاؤوا يبحثون عنّا من أجل الحرب؛ فانسحبت مُحبطاً بعض الشيء الى التينة التي طالما

(١) جمع مرديّ: خشبة طويلة، أحد طرفيها مسطّح يُضرب به قاع الشاطىء الضحل ليبتعد القارب باتجاه المياه العميقة. (المترجم).

تمتّعت بالصعود فوق فرعها الثخين، وضغطت بركبتي على الخشب الذي له مالاأعرف من شبه بخصر المرأة.

كانت السفن تُسحب من عرض الماء الى أسفل الجبال التي طلعت عليها الشمس للتوّ؛ وأخذ يخبو فيّ الانطباع الأولّي الرديء الذي يعود دون شك الى قضاء الليل بالانتظار، وإلى الإسراف في الشرب مع شبّان الداخل الذين وصلوا الى الساحل حديثاً وسيبحرون معنا بُعيد الفجر القادم. ولمّا رأيت صفوف حمّالي الجرار، والدنان السود والسلال التي تتحرك باتجاه السفن، كان ينمو فيّ بسَوْرة من الكبرياء، شعور بتفوّق المحارب. فذلك الزيت، وذلك الخمر المصفّى، وخاصّة ذلك القمح الذي سيُصنع منه تحت الرماد، أقراص نتناولها في ليالٍ قد نقضيها فوق متن السفن المبلولة في غيهب خليج مجهول، ونحن في طريقنا الى نقطة التقاء السفن الكبير، وتلك الحبوب التي ضُربت بمضربي، كانت محمّلة من أجلي دون أن أجهد عضلاتي القوية، ولاساعدي اللذين خلقا للعمل بالمعول في أعمال طيبة لايعرفها إلا أولئك الذين يعرفون رائحة الأرض. هم يعرفونها بالرغم من رائحة عَرَق بهائمهم، لأنهم يحيون منكبّين عليها حسبما تقضي عادات التعشيب والتعزيق والتسوية شأنهم شأن مايرعى فوقها.

أولئك لن تظلّلهم تلك الغيوم العابسة التي تظلّل دائماً في هذا الوقت الجزر الخضر البعيدة التي يؤتى منها بالسيليفون ذي الرائحة الواخزة. وهم لن يعرفوا مدينة الطرواديين ذات الشوارع العريضة التي نسعى الآن لحصارها واقتحامها وفتحها. ظل مبعوثو ملك ميسينا يحدثوننا أياماً وأياماً عن وقاحة بريام وعن البؤس الذي يهدد شعبنا من غطرسة رعاياه الذين

يسخرون من عاداتنا الرجولية. وإزاء تهديدات الطرواديين لنا، نحن ذوي الشعور الطويلة، والشجاعة التي لاتضاهيها شجاعة- اجتاحتنا رعشات من الحقد؛ وتعالت صيحات الغضب، ورُفعت القبضات مهدّدة، وحُلفت الأيمان برفع الراحات، وأخذت التروس عن الجدران، لمّا علمنا بخطف هيلانة الاسبرطية. كان المبعوثون يحكون لنا بأعلى أصواتهم عن جمالها الرائع، وهيئتها ومشيتها الآسرتين؛ ويروون بالتفصيل أنواع القسوة التي تتعرض لها في أسرها المذلّ. في تلك الليلة كان الشعور بالمهانة يغلي في البلد، فأعلن لنا عن إرسال خمسين سفينة سوداً. فأوقدت النيران في مصاهر البرونز، وذهبت العجائز ليجلبن الحطب من الجبل. مضت أيام، وهاأنا ذا أتأمل هذه السفن المصفوفة عند قدميّ، بهياكلها المتينة، وسواريها المسترخية بين جوانبها كالقضيب بين ساقيّ الرجل؛ فأحسست قليلاً أني سيّد تلك الأخشاب التي نجهل فنّ قيادتها. لكنّ تحشدها العجيب يحولّها الى جياد سباق قادرة على حملنا الى حيث ينتشر بفعل من أفعال العظمة، الحدثُ الأكبر في كل العصور. وأنا، ابنَ صانع السروج وحفيد خصّاء عجول، قد يحالفني الحظّ بالذهاب إلى مكان تحدث فيه البطولات التي تصلنا عبر حكايات البحّارة؛ وقد أحظى بشرف رؤية أسوار طروادة، وإطاعة رؤساء عظام، فأبذل قدرتي وجهدي لتحرير هيلين الإسبرطيّة. وهي مهمّة بطوليّة؛ لأن نصراً مبيناً في حرب كهذه يمنحنا الى الأبد رفاهاً وسعادة ومجداً. استنشقت بعمق ذاك النسيم الذي يهبط من سفوح كروم الزيتون، وفكرت: جميلٌ أن يموت المرء في صراع عادل بقدر ماهو معقول. غير أن فكرة اختراق جسدي برمح معادٍ، جعلني أتخيّل ألم والدتي، وألم والدي الذي سيتلقّى النبأ

بعينين لاتذرفان الدمع نظراً لأنه رجل ، رغم أن ألمه قد يكون أعمق . انحدرت ببطء صوب البلدة سالكاً طريق الرعاة. ثلاثة جداء كانت ترعى في أريج الزعتر ؛ وفي الشاطىء كان العمل مستمراً في شحن القمح

II

دندنت القيثارات وأنواع أخرى من الأدوات في كل مكان، احتفالاً بموعد انطلاق السفن الوشيك. كان بحّارة / لاغيّاردا/ يمشون وهم يغنون ويرقصون السامبا الصاخبة مع سوداوات مُعتقات. استمر العمل بنقل الخمر والزيت والقمح، بمساعدة فتيان المموّن من الهنود الحمر ، المشغولين بالرجوع الى أراضيهم البعيدة. في الطريق الى المرفأ، كان قائدنا يجهّز دوابّه بحمولة من مفاتيح الأرغن وأبواقه. وحيثما التقى فتيان الأسطول كانت تُسمع مصافحات صاخبة وسط قهقهات وعربدات لتسمعها النساء فيخرجن الى نوافذهن. كنّا كأننا أناس من جنس مختلف، مخلوقون لإنجاز مهامّ لن يعرفها الخبّاز ولاجزّار الغنم ولاالبائع الذي يسير وهو يصيح على قمصان هولاندية مزينة بشعور الراهبات المستعارة. في وسط الساحة كانت مزامير «المقدّم» الستة تنفخ، وقارعو الطبول البورغونيون يدقون طبولهم؛ وبوق له شدقا حيوان خرافي يجأر كأنما يريد أن يعض.

كان والدي في دكانه الذي تفوح منه رائحة الجلود والفِراء وهو يغرز المخرز بحركة لامبالية شأن من وضع ذهنه في حالة انتظار. ولمّا رآني أخذني بين ذراعيه بحزن صافٍ. ربما تذكّر الميتة الشنيعة التي لقيها كريستو باليّو رفيق مغامرات صباي، الذي اخترقته سهام الهنود الحمر في / بوكا ديل دراغو/ .

لكنّ أبي يعرف أن كلّ الناس كانوا مهووسين تلك الأيام بالإبحار الى الامريكتين، وإن كان يقول كثير من الحكماء إن ذلك الأمر كان ضلالاً مشتركاً للكثيرين وعلاجاً خاصاً للبعض منهم. وامتدح بعض المدح منافع المهنة؛ وقال إن شرف حمل راية السرّاجين في احتفالات عيد القربان، يعادل الشرف الذي يُنال في مشاريع خطيرة؛ ثمّ أطرى العيش المأمون والصندوق الممتلىء والشيخوخة الهادئة. كان الاحتفال يتعالى في المدينة؛ وهمّتي لم تعد منصرفة لسماع حجج رزينة، فاتجهت بهدوءإلى باب غرفة أمّي. إنها اللحظة التي كنت أكثر ماأخشى.

كان عليّ أن أكبح دموعي أمام نحيب من أنبئت برحيلي، في حين كان الجميع يعلمون أن اسمي دُوّن في مكتب العقود. زيّنت لها العهود التي قطعتها على نفسي لعذراء البحارة من أجل عودتي سريعاً، معاهداً ماشئت أن أتعهد به ألا أرتبط بعلاقة غير شريفة مع نساء تلك الأراضي اللاتي يجعلهن الشيطان في عُري فردوسي كاذب، لإثارة الاضطراب بين مسيحيين أغرار، وإفسادهم برؤية هذا اللحم المبذول برخص. ولمّا علمت أمّي عبث ثني من يحلم بما وراء الأفق، أخذت تسألني بصوت متألّم عن سلامة السفن وجشع الربابنة، فبالغت بمتانة / لاغيّاردا/ وشدّتها، مؤكداً أن قائدها ربّان محنّك من جزر الهند الغربية، ورفيق نينيو غارثيّا. ولتبديد شكوكها، حدّثتها عن عجائب ذلك العالم العجيب حيث ظلف أيّل الشمال، والبادزهر[1] تشفيان من كل العلل؛ وأنه يوجد في أرض أوميغواس مدينة كلها من ذهب يحتاج مشاء سريع الى ليلة ونهارين

---

(١) البادزهر: حصاة تنشأ في معي بعض الحيوانات كان القدماء ينسبون لها ولظلف الأيّل خاصيّات علاجية. (المترجم)

ليقطعها. وقد نصل اليها إن لم نجد ضالتنا من الثروة في مناطق لاتزال مجهولة حيث تعيش شعوب غنية نسعى الى إخضاعها. وتحدثت والدتي حينئذ، وهي تهز رأسها بلطف، عن أكاذيب الهنود الحمر وتبجّحاتهم حول الأمازونات، وآكلي لحم البشر، وأعاصير بيرمودا، والرماح المسمومة التي تجعل من تمسّه جامداً كالتمثال.

ولمّا لحظتُ أن حديثي المتفائل تعترض عليه بحقائق قاتمة، حدثتها عن أهداف عليا، مبيناً لها بؤس كثير من الشعوب عبدة الأوثان الجاهلين شارة الصليب. إنها مسألة ملايين الأرواح مانسعى لكسبه لديننا المقدّس، موفين برسالة المسيح إلى تلاميذه. نحن جند الله وجُند الملك في آن واحد. فبتعميد أولئك الهنود، وتحريرهم من خرافاتهم البربريّة ستكسب أمتنا عظمة لاتضاهى تمنحنا سعادة وثروة وسلطاناً على جميع ممالك أوروبا. سكّنت كلماتي والدتي، فعلّقت في رقبتي تعويذة، وأعطتني مراهم مختلفة مضادة لعضّات الحيوانات السامة، آخذة عهداً عليّ أن ألبس دائماً عند النوم جوربين من الص وف نسجتهما بنفسها.

دقّت أجراس الكاتدرائية، فقامت حينئذ بالبحث عن الشال المطرز الذي لاتضعه عليها إلا في المناسبات الكبرى. لاحظت أن والديّ وهما في طريقهما الى المعبد، كانا يشمخان برأسيهما فخراً، لأن ابنهما سجّل في اسطول «المقدّم». أكثرا من التحيات باستعراض أكثر من المألوف. فإنه لأمر محبب أن يكون للمرء فتى «شجاع» يخرج للقتال في سبيل قضية كبرى وعادلة. نظرت صوب الميناء، كان القمح لايزال يُشحن في السفن.

III

كنت أدعوها خطيبتي، وإن لم يعرف أحد، حتى الآن، شيئاً عن حبنا. ولما رأيت والدها قرب السفن فكرت أنها قد تكون وحيدة. فسلكت ذلك الرصيف الذي تصفعه الريح وتلطخه مياه خضر، وتحيط به سلاسل ومرابط مخضرّة بفعل المياه المالحة، ويقود الى آخر بيت ذي نوافذ خضر مغلقة دائماً. وماأن طرقت حتى فُتح الباب؛ ومع دفقة ريح تحمل رذاذ الأمواج، دخلت غرفة لاتزال مصابيحها مشتعلة.

جلست خطيبتي قربي على مقعد عميق وألقت برأسها على كتفي. لم أجرؤ على أن أسأل عينيها اللتين أحبهما لأنهما تبدوان دائماً أنهما تتأملان أشياء غير مرئية. واكتسبت الآن الأشياء الموجودة في القاعة معنى جديداً عندي. يبدو أن شيئاً ما يربطني بالاسطرلاب والبوصلة ووردة الرياح، ويشدني الى الأغصان المتدلية من أشجار الكرمة فوق السطح، وإلى خرائط ميركاتور وأورتوليوس التي تُنشر قرب المواقد مختلطة بخرائط سماوية مسكونة بدببة وكلاب وأقواس. ارتفع صوت خطيبتي فوق صفير الرياح المتسربة من تحت الأبواب، سائلة عن حال الاستعدادات. فخفّف عني إمكانية الحديث عن شيء آخر غير ذاتينا. فحدثتها عن أناس منطوين على أنفسهم سيبحرون معنا، مطرياً خشوع النبلاء والمزارعين الذين اصطفاهم من وضع يده على أراضيهم البعيدة باسم ملك فرنسا. قلت لها كل ماأعرفه عن نهر كولبير الهائل المحفوف بالأشجار المعمّرة التي يتدلى منها مايشبه الطحلب الفضيّ؛ وعن مياهه الحمر التي تجري بجلال تحت سماء بيضاء مثل اللقالق. وإننا حملنا مؤونة ستة أشهر؛ وإن القمح يملأ عنابر «لابيّا» و«لاآمابلي»؛ وإننا نسعى لإنجاز مهمة تحضيرية كبرى في

تلك الأصقاع الواسعة التي تمتد من خليج المكسيك الملتهب حتى مناطق تشيكاغوا، معلمين الشعوب القاطنة فيها فنوناً جديدة. لكن خطيبتي التي حسبت أنها تصغي إليّ بانتباه، انتصبت أمامي بعزم غير معهود، مؤكدة أن لامجد في هذا المشروع الذي تطنطن به أجراس المدينة منذ الفجر. ففي الليلة الماضية رغبتْ في أن تعرف شيئاً عن عالم ماوراء البحار الذي أسعى نحوه اليوم. فأخذت من «بحوث مونتين» الفصل الذي يتحدث عن العربات، وقرأت مايتعلق منه بأمريكا. وهكذا علمت بخسّة الإسبان، وكيف أنهم بالسيف والحصان جعلوا من أنفسهم آلهة. خطيبتي التي ألهبها إحساس بكر بالاهانة، دلّتني على الفقرة التي يؤكد فيها الفيلسوف البوردلي الريبي: «أننا أفدنا من جهل الهنود الحمر وافتقارهم الى الخبرة، فحوّلناهم الى الخيانة والدعارة والجشع والقسوة التي هي من أخصّ عاداتنا». فتأتي التي أعمتها وفرة من القراءات العفنة، وتعلّق في جيدها صليباً من ذهب، لتثبت لمن يريد أن متوحشي العالم الجديد ليس لديهم سبب يدعوهم لمبادلة دينهم بديننا، لأنهم أفادوا بصورة ناجعة من ذلك الدين زمناً مديداً. ، ولم أرَ في هذه الأخطاء سوى غضب فتاة محبّة فيها كثير من السحر على الرجل الذي سيفرض عليها انتظاراً طويلاً، لا لسبب إلا ادّعاؤه الحصول على ثروة عاجلة من مشروع أحيط بدعاية ضخمة. لكنني، بالرغم من ادراكي هذه الحقيقة، شعرت بجرح عميق لزرايتها بشجاعتي وعدم تقديرها مغامرة قد تعطي اسمي شهرة أحصل عليها من بطولة أقوم بها، أو بإخضاع منطقة ما فيمنحني الملك لقباً، وإن كان ذلك الأمر يقضي أن يهلك على يديّ عدد من الهنود الحمر قلّوا أو كثروا. لايُنال شيء عظيم دون كفاح. وبالنسبة لديننا المقدّس، فإن الكلمة تمتزج بالدم.

صارت خطيبتي غيورة بالإطار البشع الذي رسمته لجزيرة سان دومينكو التي ستكون إحدى محطاتنا؛ ووصفتها بعبارات غير مهذبة الى حدٍّ بعيد بـ «جنّة النساء الملعونات». كان واضحاً أنها تعرف أي صنف من النساء أولئك اللاتي يبحرن الى منطقة الرأس الفرنسي، من على الرصيف المجاور تحت رقابة المأمورين، وبين قهقهات البحارة وكلماتهم البذيئة. ربما قالت لها إحدى الخادمات إن صحة الرجل لاتتلاءم وبعض الامتناع؛ فكانت تتراءى لها في عالم غامض من العري والحرارة المرهقة أخطار أعظم من أخطار الفيضانات والعواصف وعضّات تنين الماء الذي يكثر في أنهار أمريكا. وفي النهاية، ضقت ذرعاً بجدل عنيد حلّ في تلك اللحظات محلّ وداع حانٍ كنت أرغب فيه. فأخذت أنكر على النساء الصدق. وتحدثت عن عجزهن عن البطولة، وفلسفتهن في القماط والخياطة؛ حينئذ دقّ الباب دقّات قوية معلنة عودة الأب العاصفة. قفزت من نافذة خلفية دون أن يلحظ أحد من أهل السوق هربي، لأن المشاة والصيادين والسكارى- وهم كثر في تلك الساعة من المساء- التفوا حول منضدة، يصيح فوقها واحد، ظننته في البداية بائع «إكسير أوڤيتو»، لكن، تبين أنه راهب يدعو الى تحرير الأراضي المقدسة. فيما مضى كنت على وشك الانخراط في حملة صليبية دعا اليها فولكو دو نويّي. لكنني في الصباح الباكر أُصبتُ بحمى خبيثة -شفيت منها بعون الله ومراهم والدتي- أقعدتني في الفراش وأنا أرتعد طول يوم انطلاق الحملة. وقد انتهى ذلك المشروع كما يعرف الجميع بحرب بين المسيحيين. زد على ذلك، كان في رأسي أفكار أخرى تشغلني.

سكنت الريح، وكنت لاأزال غاضباً من نقاشي الأحمق مع

خطيبتي، فتوجهت الى الميناء لأرى السفن. كانت كلها مصطفة ازاء الرصيف جنباً الى جنب، بفتحاتها التي تتلقى ألوف الأكياس من دقيق القمح بين جنباتها المطلية بالقار. كانت كتائب المشاة تصعد السلالم ببطء وسط صراخ «المصففين» وصافرات رؤساء الورش والإشارات التي تبدّد الضباب متيحة للروافع أن تدور. على متن السفن تكوّمت أمتعة لاشكل لها، وآلات ميكانيكية مهدّدة مغطاة بأغطية كتيمة. أما أحصنة الجنرالات التي تتدلى منها الشرائط فكانت تتبختر فوق سقوف المخازن كأنها جياد فاغنرية. رحت أتأمل الاستعدادات الأخيرة من أعلى سلم حديدي؛ فداهمني احساس مقلق أن ساعات قليلة -ربما ثلاثاً- بقيت لي كي ألتحق أنا أيضاً بتلك السفن متنكباً سلاحي. حينئذ فكرت بالمرأة وبأيّام الامتناع التي تنتظرني وبحزني أن أموت دون أن أمنح اللذة مرة أخرى جسماً آخر. كنت لاأزال غاضباً لأني لم أتلقّ حتى قبلة من خطيبتي. فسرت بخطا كبيرة وقد فرغ صبري كي أصل الى «نزل الراقصات».

كريستوفر الغارق في سكره كان احتبس مع صديقته. أما أنا، فعانقتني صاحبتي وهي تبكي وتضحك مؤكّدة أنها فخورة بي، وأنّي أبدو أكثر بهاء في الزيّ الرسمي؛ وأنّ «عرّافة» طمأنتها أن لاشيء سيحدث لي في إبحاري؛ وأسمتني مرات عدة «بطلاً»، كأنّ بها احساساً بالتناقض القاسي بين هذا الإطراء وعبارات خطيبتي الظالمة.

صعدت الى السطح. كانت الأضواء تتلألأ في المدينة محددة بنقاط ضوئية حدود الأبنية. في الشارع كان يجري تيار غامض من الرؤوس

والقبعات كتيار النحل. لم يكن بالمستطاع من هذا الطابق المرتفع، تمييز النساء من الرجال في ضباب المساء. لكنني، مع ذلك سأنضم الى هذا التيار من الكائنات المجهولة، وسأتوجّه الى تلك السفن بُعيد الفجر، وأعبر البحر المحيط العاصف في هذه الشهور، وأحط رحالي في شاطىء بعيد بحماية الفولاذ والنار للدفاع عن «مبادىء» عرقي. إنها المرة الأخيرة التي يُشهر فيها سيف على خرائط الغرب. لكننا سنقضي، هذه المرة، على النظام التوتوني وندخل المستقبل الذي طال انتظاره منتصرين، مستقبل الانسان المتصالح مع الانسان. وضعت صديقتي يدها فوق رأسي، وربما خمّنت عظمة أفكاري. كانت عارية تحت شقتي مئزرها المفتوح الى نصفه.

عدت الى البيت بخطوات مضطربة، خطوات من زعم أن يُزيل بالخمر تعب جسم مرهق من التمرّغ فوق جسم آخر. مازالت تفصلنا سويعات عن الفجر. كنت جائعاً ونعسان وقلقاً في آن واحد، بسبب الهموم الناجمة عن الرحيل الوشيك. وضعت سلاحي وعِدّتي فوق منضدة صغيرة، وتركت بدني يسقط في السرير. فلاحظت حينئذ بفزع أن أحداً ماتحت الغطاء الصوفي السميك. فمددت يدي الى السكين؛ لكنني وجدت نفسي أسير ذراعين ملتهبين من الحمّى يبحثان عن عنقي كذراعي غُريق؛ واذا بساقين تبدوان ناعمتين قد تشبثتا بساقيّ. عقدت المفاجأة لساني لمّا علمت أن من انزلق في سريري على هذا الشكل هو خطيبتي. فقصّت عليّ، وهي تتأوّه، قصة هربها في الليل. والطريق الخطر الذي سلكته ومرورها العابر في بستان والدي، الى أن بلغت النافذة؛ ثم نفاد الصبر وخوف الانتظار. فبعد مناقشة المساء الحمقاء فكّرتْ بالأخطار

والعذاب الذي ينتظرني، مدركة عجزها عن تقويم مصير المحارب المشؤوم. وهذا العجز يُترجم عند نساء كثيرات باستسلامهن أنفسهن. وكأن هذه التضحية بالعذريّة التي طالما صينت وحُفظت، لحظة الرحيل ذاتها دُون أمل بلذة، باذلة تمزّقها الذاتي من أجل لذّة الآخر، هذه التضحية هي نوع ملائم من طقوس البتر. إن الاحتكاك بجسم طاهر لم تمسسه يد محب أبداً، له نضارة فريدة، ومزيّة من خلال ارتعاشاته؛ وفيه غرارة هي دون شك مُوفّقة؛ وفيه طهارة تحدس وتتكيّف وتعثر بسلطان غامض على أحسن الأوضاع التي تشدّ الأعضاء الى بعضها شداً. ومن خلال عناق حبيبتي التي كان زغبها الخجول ينتصب على أحد أعضائي، كان حنقي يزداد لأنني أفنيت جسدي بعلاقات معروفة منذ زمن بعيد، زعماً بأن الحصول على هدوء الأيام المقبلة يكون بالافراط بلذات الحاضر.
والآن، يُقدّم إلي أشهى مايُطمع فيه، عن رضا، أجدني فاقد الإحساس تقريباً تحت هذا الجسد المرتعش الذي يكاد يفلت زمامه. لاأقول إن شبابي لم يكن قادراً على أن يلتهب مرة أخرى ازاء إلحاح لذّة فائقة الجدّة. لكن التفكير بأن من تستسلم لي، هي عذراء؛ وأن هذا الجسد البَكر المغلق يحتاج الى جهد بطيء ومستمر مني، إضافة الى الخوف، أدّت بي الى الإخفاق. ألقيت بخطيئتي جانباً، وأنا أقبل كتفيها بلطف. وشرعت أحدثها بصراحة زائفة عن عبث إقامة علاقات جنسية قبل السفر؛ وعن خجلها إذا تبين أنها حبلى؛ وعن حزن الأطفال الذين يشبّون دون أب يعلّمهم جني العسل الأخضر من جذوع الأشجار المجوّفة، والبحث عن الاخطبوط تحت الحجارة. كانت تصغي إليّ بعينيها الكبيرتين الصافيتين المشعّتين في الليل. ولاحظت أنها أثيرت بضغينة نابعة من أعماق

الغريزة؛ وأنها تحتقر الذكر الذي يستدعي في مناسبات كهذه، العقل والحكمة، بدلاً من افتراعها وتركها دامية فوق السرير كصيد ثمين، معضوضة الأثداء متّسخة الجسم من العصير، لكنها تصبح امرأة من خلال الهزيمة. في تلك الأثناء خارت الماشية التي سيُضحّى بها على الشاطىء، ورنّت صافرات الحرس. نهضت خطيبتي بعنف والاحتقار مرتسم على وجهها، دون أن تدعني أمسّها، مخفية الآن مفاتنها بحركة تنمّ عن استعادة شيء كان على وشك أن يُبتذل أكثر ممّا تنمّ عن الحياء. الأمر الذي أثار فيّ جشعاً مفاجئاً. وقبل أن أستطيع بلوغها وثبت من النافذة؛ ورأيتها تبتعد بأقصى سرعة بين أشجار الزيتون. وعرفت آنئذ أنه سهل عليّ دخول مدينة طروادة دون خمش، من استرداد (الشخص) المفقود.

انحدرت صوب السفن برفقة والديّ. لكن شعور الكبرياء حلّ محله احساس بالاشمئزاز لايرحم، وبفراغ داخلي وبعدم رضا عن الذات. وهاهم البحارة يبعدون السفن عن الشاطىء بمراديهم القوية. وانتصبت السواري بين صفوف الجذّافين. فأدركت حينئذ أن تلك الأيام قد ولّت: أيام البهجة واللذات والهدايا التي تسبق رحيل الجنود الى ميادين القتال. انتهى زمن تيجان الغار، والخمر الذي يُقدم في كل بيت، وحسد الجبناء، والحظوة عند النساء. وجاء الآن دور حوريّات البحر والوحل والخبز الممطور، وعجرفة القادة، والدم المسفوح خطأ، والغنغرينا التي لها رائحة شراب عفن. ولم أعد واثقاً بأن حماسي سيزيد في عظمة أهالينا ذوي الشعور الطويلة، وسعادتهم. اذ كان جندي عجوز امتهن الحرب بحماس لايزيد عن حماس الراعي الذي يسوق النعاج الى الحظيرة، يسير وهو يغني لمن يريد أن يسمع أن هيلين الاسبرطية تعيش جد منعمة في

طروادة؛ وأنها حين تتقلّب في سرير باريس، كانت تأوهاتها من اللذة تُلهب خدود العذارى اللاتي يقطنّ قصر بريام. يُقال إن مجمل قصة أسر بنت ليدا المؤلمة التي أذلها وأهانها الطرواديون، كانت محض دعاية حربية غذاها أغامنون بموافقة مينيلاو. والحقيقة أن وراء هذه الحملة كثيراً من التجارة لايفيد منها المحاربون في قليل أو كثير. والأمر يتعلق كما يقول الجندي العجوز ببيع مزيد من الفخار والقماش والآنية المرسوم عليها مناظر سباق العربات، ويفتح أسواق جديدة نحو الشعوب الآسيوية مُنهين بذلك مرة واحدة المنافسة الطروادية.

كانت السفينة المثقلة بحملها من الطحين والرجال تمخر ببطء؛ تأملت طويلاً بيوت بلدتي التي طلعت عليها الشمس. وأحسست برغبة في البكاء. نزعت الخوذة، وأخفيت عينيّ وراء شرابات قبّتها التي جهدت طويلاً لجعلها مستديرة وشبيهة بخوذات أولئك الذين يعهدون لأمهر الصناع بصنع عددهم الحربية، والذين يبحرون بالتأكيد، في أضخم السفن وأطولها.

ماتصنعه الظلمات

اتخذت السنة مظهراً رديئاً. قليلون هم الذين انتبهوا لذلك. لكن المدينة لم تكن هي ذاتها. ولم يبنْ أن الأشياء ستطيع في المنازل مايساويها من الظلال تماماً. أضف الى ذلك أن الظلال كانت تمتلكها رغبة واضحة في أن تنفصل عن الأشياء، وكأنّ للأشياء ظلاً شريراً. فقد اسودّت السقوف من انتشار الطحالب المفاجىء. أما أعمدة الأروقة فهصرتها رطوبة متجدّدة وتشقّقت ذات ليلة. وأفاريز الشرفات امتلأت بالشقوق والتصدّعات بفعل الندى والشمس ملقية بمسامير صدئة على الأرض. شيء ما كان قد تغيّر في الجو. فحمائم الأفنية كانت تتأرجح دون هديل واقفة على سويقاتها الورديّة كأن بها رغبة في إغماد أجنحتها في جيوبها. أما جرس الكاتدرائية الكبير فقد انخفضت نغمته قليلاً، كأن أمطار كانون الثاني المفاجئة نفشته، فحسبت البرونز خشباً. ولم تقم حشرات السوس والعثّ برحلة طويلة كهذه أبداً، والمنادون كانوا يصطنعون أصوات الكورس في مكتب الموتى. لم يكن أحد يعتقد أن الفواكه ستنضج. وشجيرات الأغينالد أضاعت الوقت دون أن تتسلّق الأشجار. لاشيء ذا لون أبيض كان يزدهر.

والثياب الخاصة بالعرسان غطاها العفن في قاع الخزن. والسحب كانت تنتظر الليل لتمضي الى البحر وهي تلحق أشرعة قارب صمم على أن يموت في خليج منعزل.

هكذا كانت تسير الأمور في سانتياغو حين أقيم وسط أبّهة من الصلبان والزينات جنّاز الجنرال إينا.

★ ★ ★

كان الكونترباس بطلائه المتوهّج تحت الشمس، يمضي في طريق الكاتدرائية الأعلى محمولاً بتوازن على رأس الزنجي. كان بانتشون يرفع ذراعه الأيمن ماداً سبّابته نحو وتر غليظ، فيجيب الوتر بنغمة عريضة. أتى حين لم يكن في سانتياغو أوتار للكونترباس. وكان إيقاع «التريبولي» حينئذ يؤدّى على خيوط من جلد الماعز هذّبت بحدّ الزجاج. لكن «الانتربيدا» كانت منذئذ تتردّد كثيراً. وذلك الوتر الذي اهتزّ فوقُ- لأنّ بانتشون كان نوعاً من العمالقة البُله- كان من نوع جيّد. ولأنه كذلك كانت الحرارة كافية لاطلاق النغم منه. لذلك كان النغم يملأ الشارع ويشدّ الناس الى النوافذ ويجعل بغال قافلة الفحّامين تُميل آذانها.

وصل بانتشون إلى مستودع الكنيسة. أمال الكونترباس ليدخله عبر الباب الضيّق. كان بانتظاره موسيقي نفد صبره، يدهن مقدمة الأوتار بالراتينج. مرّت يده الخبيرة تسأل الأوتار الأربعة، وقد صرّت المفاتيح في أعلى المقبض. أمّا بانتشون الفضولي فسار في إثر الكونترباس الذي كان يبتعد قافزاً على قائمته الوحيدة. المكان تعبق به رائحة البخور. وامتلأ صحن الكنيسة بذوي السلطة وبالمراوح المطرّزة. في الظلّ الذي شكّلته شارات الحداد اكتست ياقات الحرير السود بانعكاسات رصاصيّة. ولما تقدم رجل الدين من النعش شرعت الأوركسترا كلّها في الإنشاد. تسلّل شعاع شمس عبر نافذة عالية وتوقّف في نحاس الأبواق. قرّب الزمّارون القصب من أفواههم بحركة كحركة بائعي العصي. وسرت رعشة عريضة في الطبلات. وأخذت الأصوات الخفيضة دفعة واحدة

بالترتيل، ثم بدلت نغمتها الى قدّاس الموتى. ودوّى فجأة صليل السيوف، وسقطت أغطية الرأس بخفق كبير.

خرج بانتشون من الكاتدرائية. كانت تلك الاحتفالات الجنائزية الفخمة أمراً بعيداً عنه وغريباً عليه. أضف الى ذلك أن صبره عيل ليشرب بالريالين اللذين كسبهما منذ قليل. وربما لم يلحظ بسبب ذلك أن ظلّه تخلّف عنه في صحن الكنيسة مطبوعاً على بلاطة يُقرأ فيها: غبار، رماد، عدم. مكث الظل هناك مدة طويلة حتى انتهى الاحتفال، وغطته القبّعات. حينئذ عبر الحانة حيث رآه بانتشون الثمل يظهر دون أن يُفاجأ به. تمدّد عند قدميه ككلب كبير. كان ظلّ زنجي والخضوع طبيعة فيه.



لم تكن السو مبرا[1] تعجب أحداً تطيّراً. لم تعجب أحداً لأنها رقصة حزينة، سيّء أداؤها، تدخل أنغام الحزن الى أفضل السهرات الراقصة. لكن، هاهم فجأة، يؤخذون (بالسومبرا)، حتى أن فرقة الطلاء اللمّاع لم تكن تعرف عزف شيء آخر غيرها. والشيء ذاته كان يجري مع عصبة ميليشيا الحذّائين. إن في دورات المياه أم في الاستعراضات، كان يُسمع دائماً اللحن الشاكي ذاته يدور حول نفسه كحصان صندوق الدنيا العجوز. هذا التكرار كان يحوّل السومبرا الى ظلها؛ لأنها كانت تعزف على شكل مملّ حتى أن إيقاعها كان يطول ويتثنى وينتهي بما لاأعرف من مارش جنائزي. والآن بلغ المرض آلات البيان. فتحت أنامل الآنسات كانت المفاتيح الصفر تملأ بالظلال علب النغم. وبعضهم انتسب الى أكاديمية موسيقية دون هدف آخر سوى تعلّم عزف (السومبرا). وحتى الآلات الموسيقية العتيقة المنسيّة في السقائف انجذبت هي الآخرى وعرفت

(١) تعني الظل. وهي هنا رقصة تُرافق بالعزف والغناء.

عدوى الرقص الرجيم. وكانت تغنّي دون أن يدنو منها أحد بأصوات معدنية دقيقة موحدة اهتزازات أوتارها باهتزاز أوتار الآلات المجاورة. والآنية في خزنها غنّت السومبرا أيضاً. وكذلك رقّاصات الساعات الموسيقية، والأوتار المرتعشة في الأرغن.

كانت الحديقة العامة فاضت بحزن كبير. وكان الشباب المدلّل والفتيات يقضون نزهاتهم ببطء متزايد دون أية رغبة في تبادل الحديث. والآلات النحاسية توقّع بأصوات عميقة تلك السومبرا التي تعزفها في كل أرجاء المدينة، جوقة من مئتي بيان ذات أغطية سود. وهناك حسّون تعلم السومبرا من الألف الى الياء، وُجد ميتاً من شدة الكمد لأن صاحبه الحلاق ايخينيو كان ينوي أن يرسله الى دونيا ايزابيل الثانية كنموذج للعجائب التي لاتزال توجد في هذه الأرض.



جاء عصر الأقنعة. جرت احتفالات كئيبة، أقامها أطفال مقنّعون تُركوا وحيدين في شوارع مقفرة، وفرقٌ بعثرها عاصف من المطر، ذات أقنعة تخفي وجوهاً عريضة وملابس كالتي يرتديها الحبر الأعظم. لم تجد الفتيات اللاتي ذهبن الى الرقص عرساناً. والفرق كانت تعزف دون رغبة، وموسيقيّو العُصبة كانت لهم هيئات دمى مسرح ميكانيكي. وكانت أبواق الكرتون تطلق أصواتاً كصوت الديك الرومي. لكنّ الأقنعة الورقية التي سالت بعرق خبيث، كانت تترك في الشفاه طعم ذيل سمكة. لم تصل أوراق الزينة في حينها. وفي المحلّات كانت الأنوف المُصطنعة قد أعيت من الانتظار. وانخرط في البكاء طفل بقناع ملاك لأنه وجد نفسه قبيحاً حين نظر في المرآة.

هكذا كانت تسير الأمور لمّا طاف رجل يدعى بورغوس، وهو قارع

طبل في الفرقة، شوارع حي (الشاكارا) منادياً بأعلى صوته يطلب من الجيران تشكيل فريق. في زاوية شارع لاكروث تجمّع المتطوّعون. كان بانتشون أول من وصل ساحباً ظله. ثم ظهرت (لاإيسيدرا مينيتو)، لاليتشوسا، لاإيّوكيتا، وخوانا لارونكا.

كان ينبغي انشاد شيء ماغير السومبرا. وطارت فجأة أغنية فوق السطوح:

آي، آي، آي، من سيبكي عليّ؟

هناك راحت، هناك راحت لالولا.

أخذ فريق بورغوس يصعد حتى مركز المدينة، وكان يرفده مغنّون جدد عند كل ناصية شارع. خرج رئيس المجلس ونقيب الرابطة الأخوية، ورؤساء الميليشيات وعدد من أعضاء جمعية أصدقاء البلد الاقتصادية، حتى أسقف سانتياغو خرجوا جميعاً الى الشرفات لمشاهدة الموكب. التقط رئيس الفرقة الموسيقية الكنسية الايقاع بقدمه اليمنى دون أن يستطيع إصلاحه. وعند حلول الليل أوقدت منارة كبرى يمكن ملاحظتها من مرتفعات بويرتو بونياتو. كانت المنارة تتراقص على مطاريف السطوح وترتفع في الحانات ثم تنطلق من جديد وهي تدور حول نفسها كشمس آلة بيريكا الرياضية التي طالما استخدمت منذ أربعين عاماً خلت في أعمال الأوبرا ذات العروض الكبرى.

انتشرت الفرق خلال أيام قلائل وتضاعف عددها على شكل غير مفهوم. وماأن حلّ عيد سانتياغو حتى كان أكثر من عشر فرق تجوب المدينة على ايقاع الأغنية التي قتلت السومبرا

آي، آي، آي. . . .



بعد الصلاة ووجبة طعام خفيفة باردة من يوم ١٩ آب، ثارت جلبة كبيرة في أروقة المسرح. كان الشاعر والموسيقي بربطتي عنقهما الناعمتين، وسترتيهما المغلقتين بإحكام يستقبلان الجمهور في مقرهما. وصلت فتيات عليهن المطرزات والعطور ترافقهن أمهاتهن. كان أهالي سانتياغو يتقاطرون لمشاهدة تجربة العرض في مهرجان كبير. وكانت ممثّلات اليوم الواحد قد أحضرن أجوبتهن في دفاتر مدرسيّة منسوخة بحروف تتميز بها تلميذات الراهبات. واستولت الفتاة التي ستقوم بالدور الأول في «دخول العالم الكبير»، على الحجرة التي كان تعرّى فيها كثير من مغنيات الكوميديا الشهيرات أمثال ايزابيل كامبورينو، وعشيقات ملاك، وزوجات ممثلين. كانت لاتزال بقايا من أحمر الخدود في صحن من البورسلين الأبيض، ومن ماء القلي في قعر إناء. على أحد الجدران تلمح بوضوح صيحات تعجب يطلقها المُكارون[1]، خُطّت بأحمر الشفاه. أما أريكة الحرير الكناري فكان فيها خسفات لايمكن أن تحدث عن ثقل جسم واحد فقط. انزلق الملقن الى قفص التلقين، وأعطى اشارة البدء بعرض «الدخول في العالم الكبير» الذي كان ينبغي أن يمثل في اليوم التالي لصالح المشافي. كان ذلك في شهر آب، ومع ذلك كان الطقس بارداً. وماكان بقدرة أحد أن يلاحظ، بسبب الظلام الذي يلف القاعة، أنّ العناكب كانت تتأرجح بصورة غريبة، جيئة وذهاباً كرقاصات ذات حجوم متباينة.



ما أن بدأ قداس الساعة العاشرة من يوم ٢٠ آب، حتى اتّحد برجا الكنيسة في زاوية قائمة ملقيين بالأجراس على صليب الفناء. وخلال ثانية

---

(١) جمع مُكارٍ: هو من يقوم بتأجير دواب الجر لنقل البضائع من جهة الى أخرى.

واحدة انقلبت مظاهر المدينة. تكوّمت مطاريف البيوت حطاماً في وسط الشارع. واتخذت الجدران لنفسها دروباً شتى، تاركة السقوف معلقة في الهواء قبل أن تنفجر وسط عصف مروع من جذوع الكرمة المحطمة. كانت البغال تدور في الشوارع المنحرفة تغطيها سحب من الفحم، وقد علقت شظايا تحت أحزمتها وقرابيسها. وشرعت ورود الحديقة في الطيران متساقطة في مستنقعات وجداول هجرت مجاريها؛ بعدئذ، اضطربت الأرض اضطراباً واهتزت الأرداف كاهتزاز الزنابير، وتشوهت الأرصفة؛ وانغلق ماكان مفتوحاً، وانفتح ماكان مغلقاً. وطفق الناس يتراكضون صائحين، منادين عذراء النحاس، فيجدون أمامهم شارعاً لامنفذ له إلا كمنفذ قبة، أو باب ارشيف كاتب بالعدل. وفي الهزة الثالثة أخذ الأثاث بالرقص. وهكذا، راحت الخزن تفرّ وهي تطير فوق الشرفات ملقية من بطونها المبعوجة أحشاءها الطويلة من الملاءات والأغطية. كل الأواني انفجرت في لحظة واحدة؛ والبلوريات انحشرت في المشبكات. شقوق عريضة امتلأت بالأمشاط والمرصعات والمجلات والصور الشمسية، كانت تقسم المدينة الى جزر، لأن مياه الآبار، بعد أن تحطمت جدرانها، كانت تسيل حتى الميناء.

ولما أخذ الدم يملأ الملابس والطيالس واللباد كان كل شيء قد قُضي. لكن ساعة جيب لاتزال معلقة بسلسلتها سجلت دقيقة واحدة قصيرة متقدمة على الساعات الميتة. يومئذ، علم الناس الذين كانوا لايزالون أحياء أنهم شهدوا زلزالاً. وطفق الذباب الذي خرج من حيث لايعلم المرء، يطير على وجه الأرض بأعداد كبيرة.



كانت الظلال أعيت من مضاعفة النذر؛ وكان الكثير منها يستعد الآن

لترك المدينة. ففي الشهر الذي جرى فيه الزلزال ركض كثير من العابرين صوب النبع المحطّم. ووجدت امرأة مجهولة الهوية -ربما كانت أجنبية- صريعة عند قاعدة تمثال نبتون، وانتصبت ذراعاها ورجلاها كأنها عصي دولاب. وظل الدلفين يتقيأ ماء عكراً يسقي نباتات مقيتة نبتت في ظل الحداد. والأمر نفسه تكرر مرات عدة خلال اليوم في مختلف أحياء المدينة. اذ خرّ أحدهم فجأة في إحدى زوايا الشوارع وقد تهشم وجهه وازرقّت جمجمته. كانت الحاجة تدعو الى وجود الخبّازين ساعة الخبز. وعاد كثير من الجياد الى البيوت وحيدة تجر وراءها ايقاعاً مشؤوماً.

لكنّ الحفل المعلن عنه أقيم رغم كل شيء. لأن الحاكم رأى أنه ليس ملائماً أن تضاف هموم جديدة الى الهموم الكثيرة التي سوّدت وجه النهار. لذلك عمل على جمع الممثلين مرة أخرى لتمثيل «الدخول في العالم الكبير»، من أجل اعادة تنظيم العمل المتوقف لرعاية المشافي. بدأ كل شيء بداية حسنة. لكن، حين بدىء بالرقصة الثانية، تدحرج زوجان من الراقصين على رخام الأرض. وسقط عازف الكونترباس خارج المنصة مع القوس المغطى بالزبد، أما الأوتار فتعلقت باحدى قدميه. أمسكت يد مرتعشة بشرّابة فأحدثت انهياراً من المخامل فوق جرار صينية موضوعة على مناضد تزين القاعة الكبرى.

كان المدير لايزال يسجل ايقاع «السومبرا»، لكن الموسيقيين تدافعوا صوب الأبواب الخلفية، بعد أن غطوا آلاتهم وأطفؤوا الشموع المنصوبة في أطراف مساند النوتات. كانت القوارير تروح وتجيء عبر السلالم، والمدعوون ينادون سائقيهم بأصوات مضطربة. تلك الليلة غادر كثير من الناس لاجئين الى حقول القهوة القريبة. لكنّ مخمل

المقاعد كان مملوءاً بحرارة لعينة. وفي السماء كان يرحل قمر مخضر باهت كأن معالمه اختفت خلف شجرة لبلاب.

ممثلو «الدخول في العالم الكبير» سرعان مادخلوا العالم الكبير حقاً. فقد أقيمت المشافي وسط الحدائق. فلاعجب اذاً، أن يشكو محتضر ضيقه خلال الليل بشجيرة ورد تنمو سريعاً. كانت الجثث كثيرة حتى استخدمت عربة بائع كناري لحملها الى مقبرة سانتا آنا. وعلى خطوها جرت العادة أن يقال بصوت واحد:

هناك راحت، راحت هناك لالولا.

لم تُنقص الكوليرا من حمية بانتشون، وهاهو أخذ يحمل عوضاً عن الكونترباس جثثاً فوق رأسه. وكعادته راح يبحث عن الوتر فلايعثر إلا على العفن. غير أن ظلال الآخرين التي تعترضه من علُ كانت تشغله قليلاً. كانت تنطلق في الهواء راسمة ظلالاً جديدة عند كل منعطف. دراساته الضئيلة حبته بالقدرة على فك رموز بعض اللوحات التي كان يميزها بلون حبر المطبعة أو بتوضع الحروف. واذا تعثر بلوحة «الدخول في العالم الكبير» كان يؤدي التحية بالجثة. دون شك كانت توجد علاقة خفية، لكنها مؤكدة، بين هذا وذاك.

أخذت الشكوك تنتاب بانتشون لما سقطت لاليتشوسا، وخوانا لارونكا بدورهما. هذا اليوم، حمل الجثث محاولاً اختصار الطريق. لكن شجيرات عباد الشمس التي كانت رفعت رؤوسها فوق سور المقبرة، جعلته يفكر حالاً أن حياته كانت جميلة. وشيئاً فشيئاً أخذت أغنية تتطابق مع خطوه:

آي، آي، آي... من سيبكي علي؟
هناك راحت، راحت هناك، لالولا.

في أواسط تشرين الأول كانت لاإيسيدراامينيتو، لاإيوكيتا، ويورغوس وأعضاء الفريق جميعهم يرقدون منقلبين في حفرة واحدة.

وتضاءلت الظلال في سانتياغو.

ذات صباح، تغير كل شيء في المدينة. فقد انتشرت ألعاب الأطفال في البيوت. والانتريبدا دخلت الميناء بأشرعتها المنشورة. وخرجت من الصناديق ثياب بيض، وصار الهواء أرقّ. وأفزعت الأجراس الطيور الجوارح التي تنتظر في الزوايا. وعادت القواقع للغناء.

في ٢٠ كانون الأول، أقيمت صلاة الشكر في الكاتدرائية. كان عازف الأرغن مستسلماً للعزف، فاذا به يهب مذعوراً باتجاه الساحة. كانت هناك (لالولا) تقطر من كل محاورها. وكان بانتشون يرقد خلف الحوذيّ منبطحاً فوق حزمة من القش وقدماه متفختان. شيئاً فشيئاً، تغيّرت صورة القداس. ولاحظ بعضهم أن الألحان لاتتفق تماماً ونغمة الترانيم. وكما يحدث في ألعاب الألفاظ، راح المصلّون يهمسون، وإن في ايقاع بطيء، بأغنية: «هناك راحت.. راحت..».

لكن القس الذي كان فيه شيء من الصمم لم يتعرف الى الأغنية. وظن أن يدي العازف اضطربتا وهو يعزف الأغاني الدينية استعداداً لأعياد الميلاد القادمة.

سفر نحو الأصول

I

- ماذا تريد أيها العجوز؟

سقط السؤال مرات عدة من أعلى السقالات. لكن العجوز لم يكن يجيب. كان يسير من مكان لآخر متحرّياً، مطلقاً من الحلق مونولوجاً طويلاً من العبارات المبهمة. كانت ألواح الآجر هبطت وغطت المقالع الناضبة بشظاياها من التراب المشويّ.

فوقُ، كانت المعاول تنزع حجارة البناء وتدحرجها في أقنية من الخشب وسط عصف من الكلس والجص. ومن خلال الفجوات المتتابعة التي جعلت الأسوار درداء، كانت تبدو -وقد تعرّت من أسرارها- سقوف مستوية بيضاوية أو مربعة، وأفاريز وتيجان ومسنّنات وحلقات وأوراق مغرّاة تتدلى من الواجهات كأنها سلوخ[1] أفاع عتيقة.

كانت ربة الخصب بأنفها المكسور وسترتها الباهتة، وتسريحة شعرها القمحي المخطط بالأسود، تنتصب فوق نبعها ذي الرسوم الساخرة الدارسة. أما أسماك المستنقع الرمادية، فكانت تتثاءب في مياه طحلبية دافئة وهي تنظر بعيونها المستديرة الى أولئك العمال السود على خلفية سماء صافية، وهم يدكّون شموخ ذلك البيت العتيق.

جلس العجوز عند قاعدة التمثال مستنداً بذقنه الى العصا، وراح

(١) جمع سِلْخ: القشر الذي تبدله الأفعى بين حين وآخر.

ينظر الى القفف الصاعدة النازلة وهي تنقل بقايا ثمينة. كانت تُسمع مكتومة ضوضاء الشارع، بينما البكرات تعزف، على ايقاع حديد وخشب، ترديد عصافير كريهة.

دقت الساعة الخامسة، وأقفرت الأفاريز والمنصّات. وظلّت السلالم المتنقلة وحدها تستعد لهجوم اليوم التالي. أصبح الهواء أكثر طراوة بعد أن تحرر من العرق والشتائم وصرير الحبال والمحاور التي تطلب زيتاً وراحات ملطخة بالشحم. حلّ الغسق باكراً في البيت العاري، وامتلأ بالظلال في أوقات كانت فيها قضبان الأفاريز المتداعية الآن، تتيح للشرفات من قبل بعضاً من ضوء الشمس. عضّت ربة الخصب على شفتيها؛ ونامت الغرف لأول مرة دون نوافذ مشبّكة، وقد انفتحت على منظر من الخراب.

باتت بعض الماشية بين الأعشاب على غير ماتهوى. واكتشفت أوراق نبتة شوكية وضعها النباتي. وغامرت شجيرة متسلّقة بمدّ مجسّاتها نحو الحنيّة اليونيّة يشدها الى ذلك جو أليف. ولما حلّ الليل كان البيت أقرب مايكون الى الأرض. لكن إطار الباب كان مايزال منتصباً في الجهة العليا، مع بعض الألواح القائمة معلّقة بمفصّلاتها المخلّعة.

II

حينئذ قام الزنجي العجوز الذي ظل ساكناً كل الوقت، بحركات غريبة وهو يهز عصاه فوق مقبرة من البلاط.

طارت ألواح المرمر بيضاً وسوداً الى طوابق البناء العليا وغطّت أرضيتها. وقفزت الحجارة قفزات ثابتة لتسدّ فجوات الأسوار. وانطبقت رقائق خشب الجوز المسمّرة، على أطرها. وعادت براغي المفصّلات

لتنغرس في حفرها بدوران سريع. وألواح الآجر في المقالع الناضبة انتصبت بقوة الأزهار، وتجمعت أجزاؤها وأطلقت عاصفة مدوية من التراب لتسقط مطراً على هيكل السقف. نما البيت من جديد مشدوداً الى أبعاده المعتادة، قوياً ومزداناً. وأمست ربة الخصب أقل حزناً. وصار في النبع مزيد من الأسماك، وخرير المياه استدعى اليه أزهار البيغونيا المنسية.

أدخل العجوز مفتاحاً في قفل الباب الرئيسي، وشرع يفتح النوافذ. رنّ عقباه في الفراغ. ولما أشعل المصابيح، سرت رعشة صفراء في رسوم العائلة الزيتية؛ وتهامس جمّ غفير في كل الأروقة، وسُمع ايقاع ملاعق تتحرك في فناجين الشوكولا. كان دون مارثيال، ماركيز كابيّانيّاس، يرقد على سرير الموت وصدره مصفّح بالميداليات تحرسه أربع شمعات ذات لحى طويلة من الشمع المذاب.

III

نمت الشموع وهي تنضح عرقاً. ولما بلغت تمام قامتها أطفأتها الراهبة. ابيضّت الفتائل ثم أطلقت هباباً. خلت الدار من الزوار ورحلت العربات ليلاً. ضغط دون مارثيال على مفتاح غير مرئي وفتح عينيه. تعلقت الدالية بمكانها على السطح، مضطربة وحائرة. أما المراهم الطبية وستائر الدمقس والتمائم والصور الشمسية والشبّاك الحديديّ، فقد خرجت من ضبابيتها. ولما هزّ الطبيب رأسه بحزنه المألوف، أحسّ المريض بتحسن. لقد نام ساعات معدودات واستيقظ وهو تحت نظرة الأب أنستاسيو السوداء العابسة. وجرى الاعتراف صريحاً، ومفصلاً ومسكوناً بالخطايا، ومتردداً، وشائكاً، وملآن بالمخبآت. في الواقع،

بأي حق يتدخل هذا الكرملي في حياته؟ ووجد دون مارثيال نفسه بغتة مسحوباً الى وسط الغرفة. ثم نهض وقد تحرر من ثقل في صدغيه، وهو يشعر بصفاء عجيب. وراحت المرأة العارية التي كانت تتمطّى على حافة السرير، تبحث عن ملابس داخلية وحاملة صدر، ساحبة وراءها بعد قليل حفيف حرير يتثنى، وعطراً. في الشارع، كانت العربة المغلقة تحوي ظرفاً فيه عملة ذهبية، يغطي بقعاً صغيرة في المقعد.

لم يكن دون مارثيال يحسّ بأنه على مايرام، ولما سوّى ربطة عنقه أمام المرآة رأى وجهه محتقناً. نزل الى المكتب حيث كان ينتظره رجال عدالة ومحامون وكتبة لإعداد بيع البيت بالمزاد. كل شيء كان باطلاً. أملاكه ستنقل الى يدي أفضل مزايد على ايقاع مطرقة تقرع بها المنضدة. حيّاهم وتركوه وحيداً. كان يفكر في أسرار الحرف المكتوب. في هذه الخيوط السود التي تتعانق وتنفصل فوق صفحات عريضة متساوية ككفتي الميزان. وهي حروف تربط وتفك تسويات وأيماناً وتحالفات وشهادات وتصاريح، وكُنى وألقاباً وتواريخ وأراضي وأشجاراً وحجارة. إنها شبكة خيوط مسحوبة من الدواة تُربط بها قدما الانسان لتسدّ أمامه طرقاً لايسوغها القانون. إنها حبل في الرقبة يضغط على الأذن حين تلتقط صوت الكلمات المهيب وهي تنطلق دون رقيب. خانه توقيعه وقد ازداد تعقيداً في حزم الوثائق. والرجل الذي هو من لحم يصبح بعد أن يُربط بها رجلاً من ورق. كان الوقت فجراً، وساعة غرفة الطعام دقت للتوّ السادسة مساء.

IV

انقضت أشهر الحداد يظللها تبكيت ضمير يكبر باستمرار. في بداية الأمر، بدا له أنّ جلب امرأة الى تلك الغرفة فكرة معقولة الى حدّ ما. لكن

رغباته بجسد جديد حلت محلها شيئاً فشيئاً، شكوك نامية حتى صارت تعذّبه. ذات ليلة، أدمى دون مارثيال جسمه جلداً بالسوط فأحس بعدها بشهوة عارمة، لكن لفترة قصيرة. كان ذلك، لما عادت المركيزة ذات مساء من نزهتها على ضفاف الألمنداريس. لم تكن جياد العربة تحمل على أعرافها أية رطوبة إلا ماسال من عرقها ذاته. لكنها ظلّت بقية النهار ترفس ألواح الإسطبل وقد أهاجها، كما يبدو، ركود الغيوم الواطئة. عند الغسق، تحطمت جرّة مملوءة بالماء في حمام المركيزة، وعلى إثرها فاض المستنقع بمياه أيار. أما تلك العجوز الزنجية الموسومة بعلامة الهرب، وتربي الحمام تحت السرير فكانت تسير في الفناء مدمدمة: «لاتثقي بالأنهار يابنيّتي، لاتثقي بالأخضر الذي يجري». لكن، لم يمرّ يوم دون أن يكشف الماء عن حضوره. غير أن هذا الحضور لم يعد أكثر من فنجان مسفوح على ثوب مجلوب من باريز، بعد العودة من حفل الرقص السنوي الذي يقيمه جنرال المستعمرات.

عاد الى الظهور كثير من الأقارب، ورجع العديد من الأصدقاء. وكانت تتلألأ جد واضحة شبكات العنكبوت في الصالون الكبير. أما شقوق الواجهة فكانت تلتئم. وعاد البيانو الى الكلافيكورد[1]. وراحت الأصابع تفقد خواتمها.

تسلّقت شجيرة أول إفريز. وابيضّ محجرا ربة الخصب. وبدت الماشية كأنما جُزّت حديثاً. أما دون مارثيال فقد صار أكثر اضطراماً، ويقضي أمسيات كاملة في عناق المركيزة. لم تعد رجلاها رجلي دجاجة، وامّحت التقطيبات والانتفاخات وعاد اللحم الى اكتنازه. وذات يوم عبقت بالبيت رائحة طلاء جديد.

(١) آلة موسيقية قديمة تطورت الى آلة البيانو

V

احمرارات الخجل كانت صادقة. كل ليلة كانت الستائر ترفع أكثر قليلاً، والتنّورات تسقط في الزوايا الأقل إضاءة. وصارت الحواجز الجديدة جد رقيقة. وأخيراً أطفأت المركيزة المصابيح. كان وحده يتكلم في العتمة.

انطلقا الى منشأة قصب السكر في قطار كبير من العربات يلمع بأرداف الجياد أو الشكائم الفضيّة. لكنهما في ظل أزهار الفصح التي أضفت لوناً أحمر على الرواق الداخلي، تنبها إلى أنهما يكادان لايعرفان بعضهما. وأمر مارثيال بالرقص وقرع طبول محلية ليلهو قليلاً في تلك الأيام التي لها رائحة عطر الكولونيا، وحمامات من اللبان الجاوي، ورائحة شعور متناثرة، وأغطيةتُرفع من خزن، اذا مافتحت يسقط منها على البلاط رزمة من جذور الفيتيفر(٢).

بخارعصير السكر يدور مع النسيم على ايقاع دقات جرس الكنيسة. والنسائم تطير منخفضة معلنة عن أمطار مترددة، قطراتها الثخينة والرنانة كان يمتصها الآجر الجاف حتى كأن لها مفاتيح نغم من نحاس.

وبعد صبح طال به عناق باهت، رجعا الى المدينة وقد تحررا من اضطرابهما وانغلق الجرح. بدلت المركيزة ثياب السفر ببزة خطوبة. ذهب الزوجان الى الكنيسة، كعادتهما، ليستردا حريّتهما. أعادا الهدايا الى الأقارب والأصدقاء. ووسط هرج من قعقعة البرونز وعرض لعدد الخيل سلك كل منهما الطريق الى بيته. استمر دون مارثيال على دأبه بزيارة ماريا دي لاس مرسيدس الى يوم حُمل الخاتمان الى الصائغ لإبدال

(٢) نبات هندي جذوره ذات رائحة قوية يستخدم لحماية الملابس والصوف من العث.

نقشيهما. كانت تلك بداية حياة جديدة لدون مارثيال. في البيت ذي النوافذ العالية والمشبكة بالحديد، استُبدلت ربة الخصب بفينوس ايطالية. أما رسوم النبع الساخرة المحفورة، فقد ازدادت بروزاً، على شكل خفي، لما رأت أن الشموع لاتزال متقدة رغم طلوع الفجر.

VI

ذات ليلة، أسرف دون مارثيال في الشرب، و«دوّخته» رائحة التبغ الكريهة التي خلفها أصدقاؤه، فتولّد لديه احساس غريب بأن ساعات البيت تدق الخامسة ثم الرابعة والنصف، ثم الرابعة، ثم الثالثة والنصف... كان ذلك احساساً بعيداً بامكانيات أخرى، كإحساس المرء وهو ساه أنه يستطيع السير على سقف مستو له أرضية من بلاط، وأثاث معلّق باحكام بين أغصان كرمة السطح. كان انطباعاً عابراً لم يترك أدنى أثر في روحه التي تتجه الآن قليلاً نحو التأمل.

أقيم حفل ساهر في قاعة الموسيقى يوم بلغ سن الشباب الأول. كان مرحاً وهو يفكر أن مؤسسته لم يعد لها قيمة قانونية، وأن السجلات والوثائق بالعثّ الذي يعيث فيها، قد امّحت من عالمه. وبلغ حداً أصبح بعده لايهاب المحاكم لأنه من لحم لايستطيع القضاة ازدراده.

بعد أن انتشى الشبان بفعل الخمور النبيلة، رفعوا عن الجدار قيثارة مرصّعة بالصدف وسنطوراً. بعضهم ربط الساعة التي كانت تدق التيروليساديلاس باكاس، ونشيد البحيرات الايكوسية. ووضع أحدهم في فمه بوق الصيد الذي كان ملتفاً بنحاسه فوق خيوط الواجهة الحمراء الى جانب الفلوت المجلوب من آرانخويس. كان مارثيال يغازل بجرأة السيدة كامبو فلوريدو، وانضم الى الضوضاء وهو يبحث في مفتاح النغم

الخفيض عن لحن تريبلي ترابلا. صعدوا جميعاً الى العليّة؛ حينئذ تذكروا بغتة أن الثياب والبزّات الخاصة ببيت كابيّانياس تختبىء تحت شجيرات الكرمة التي نمت جذوعها. كانت ترقد في الأبهاء المزركشة بأشجار الكافور ثياب البلاط وسيف زينة، وسترات ضيّقة ومعطف راعي كنيسة وبزّات عسكرية طويلة ذات أزرار دمشقية. وتلونت الظلال بشرائط من القطيفة وتنّورات داخلية صفر وتنورات خارجية ذاوية وبأزهار من المخمل. وقد أثارت الاعجاب بزة شعبية ذات حقيبة لها هدّاب كانت بنت احدى الحفلات التنكرية. أما السيدة كامبوفلوريدو ذات الكتفين المدوّرتين المرشوشتين بالذرور، فقد جاءت يغطيها قناع رقيق بلون اللحم الخلاسي؛ وهو لحم أفادت منه احدى جدّاتها ذات ليلة من ليالي القرارات الكبرى لكي تؤجّج النيران الخامدة في أحد أغنياء كلاريساس .

عاد الشباب متنكرين الى القاعة الموسيقية. أما دون مارثيال الذي غطى رأسه بقبعة ذات ثلاثة أطراف، فدق الأرض بعصاه ثلاث مرات مطلقاً اشارة البدء برقص الفالس. وهو رقص تخشاه الأمهات كثيراً، وتجدنه غير ملائم للآنسات، وذلك أنهن يدعن الرجال يمسكون بهنّ من الوسط ويلقون أياديهم على رباط حاملات الأثداء التي صنعت كلها عند صاحب محل «جنّة الأزياء» الجديد.

اكتظت الأبواب بالخدم والأعوان الذين أتوا من أماكن عملهم البعيدة ومن الأقبية الخانقة اعجاباً بهذا الحفل الكبير الصخوب، ثم لعبوا لعبة الدجاجة العمياء ولعبة الاستغماءة. اختبأ مارثيال والسيدة كامبو فلوريدو خلف ستارة صينية، وطبع قبلة على نقرتها، فتلقى جواباً عنها منديلاً معطراً كان طرازه يحتفظ بحلاوة دفء جيدها. ولما ابتعدت الفتيات في أضواء الغسق صوب المرقب والأبراج التي ترتسم على البحر

بلون رمادي أسود، ذهب الفتيان الى المقصف حيث تتبختر الفتيات الخلاسيات ذات الخلاخيل الكبيرة بعذوبة فائقة دون أن يفقدن كعوب أحذيتهن العالية. الجو جو احتفالات. واحتفالات كابيلدو آرارا تريس أوخوس كان يثيرها قصف الطبول خلف حائط معترض في فناء مزروع بالرمان. ارتقى مارثيال وأصدقاؤه مناضد ومقاعد وأطروا جمال فتاة سوداء بلون الزبيب الأشهب تبدو جميلة ومرغوبة تقريباً، حين تنظر بعدم اكتراث وهي ترقص بحركة متعالية ومتحدية.

VII

أصبحت زيارات دون آبونديو كاتب العائلة ووصيها، تتكرر كثيراً. كان يجلس بوقار عند رأس سرير مارثيال ويدع عصاه تسقط على الأرض ليوقظه قبل أوان استيقاظه. وحين يفتح عينيه كانتا تصطدمان بسترة رسمية من جلد «الألبكة» تغطيها قشور. كمّاها اللامعتان كانتا تجمعان أموالاً وديوناً. في النهاية بقي له دخل معقول ومحسوب لقطع الطريق أمام أي جنون. كان هذا وقت انتساب مارثيال الى مدرسة سان كارلوس الملكية الاكليريكية. وبعد امتحانات هزيلة سُمح له بالتردد على الأروقة؛ لكن فهمه على أساتذته كان محدوداً. وراح عالم الأفكار ينضب، وماكان في البداية جمعية مسكونيّة للألبسة النسائية والجلابيات والأطواق والشعور المستعارة والثرثرة والجدال، اكتسب جمود متحف من الصور الشمعية. كان مارثيال يكتفي الآن بمعرض سكولائي للمناهج قانعاً بصحة كل مايقال في أي نص: «أسد»، «نعامة»، «حوت»، «جاغوار» كانت تقرأ محفورة على لوحات التاريخ الطبيعي النحاسية. وبالطريقة ذاتها كان أرسطو، والقديس توما، وبايكون وديكارت في رأس صفحات سود

كانت تُصنف فيها شروح مملة عن الكون في هامش سفر سميك. وشيئاً فشيئاً تخلى عن دراستها وقد ألفى نفسه متحرراً من عبء باهظ، وأمست روحه خفيفة الظل ومرحة، راضياً بمفهوم غريزي عن الأشياء. لماذا التفكير بالموشور مادام نور الشتاء الصافي يعطي أكبر التفاصيل عن قلعة المرفأ؟ وإن تفاحة تسقط من الشجرة ماهي إلا دعوة موجهة للأسنان. وإن قدماً في حوض الحمام ليست أكثر من قدم في حوض الحمام. ويوم ترك المدرسة نسي الكتب. والعفريت يرتقي فيصير شيطاناً. والطيف مرادف للشبح. والأوكتاندر حيوان مدرّع ذو شوك في ظهره.

كان يسير مسرعاً يملأ قلبه القلق وهو متجه الى حيث النساء اللاتي يتهامسن من خلف أبواب زرق عند قاعدة الأسوار. كانت ذكرى المرأة التي تلبس حذاء مخرّماً وتضع أوراق الحبق فوق أذنيها، ماتزال تلاحقه في الأمسيات الحارّة كوجع الضرس. لكن غضب رجل الدين وتهديداته جعلتاه ذات يوم يبكي رعباً. وسقط للمرة الأخيرة في أردية الجحيم، متخلياً الى الأبد عن جولاته غير الموفقة عبر الشوارع، وكذلك عن أحوال الجبن التي ترده في الساعة الأخيرة وتجعله يعود الى البيت حانقاً بعد أن يغادر ذلك الرصيف المتصدّع. (وهي اشارة الى نصف الدورة التي كان عليه أن يقطعها وبصره الى الأرض، ليطأ العتبات المعطرة).

والآن، يعيش أزمته الصوفية المسكونة بالانقطاعات، وبحملان الفصح، وحمائم من الخزف، وعذراوات ذات معاطف زرق سماوية، ونجوم من الورق المذهب، وبملوك مجوس وملائكة بأجنحة التمّ؛ وبالحمار والثور والقديس ديونيسيو الرهيب الذي يظهر في الأحلام بالفراغ الكبير بين كتفيه، وبمشيته المرتعشة شأن من يبحث عن شيء مفقود. كان القديس يصطدم بالسرير ويستيقظ مارثيال مذعوراً ويتناول

السبحة ذات الحبات الصمّ، بينما الفتائل في حويضات الزيت تلقي ضوءاً حزيناً على الصور التي تستعيد لونها الأول.

VIII

كان الأثاث ينمو. وصار من العسير أن يستند المرء بذراعيه الى حافة منضدة الطعام. والخزن ذات الأفاريز المشغولة اتسعت واجهاتها. ومطالع السلالم اقتربت بمشاعلها من البسطات. صارت الأرائك أكثر عمقاً، والمقاعد الهزازة كان بها ميل للسير الى الخلف. ولم يعد ضرورياً أن يثني المرء ساقيه في حوض الحمام ذي الحلقات المرمرية.

كان مارثيال يقرأ ذات صباح، في كتاب خليع، فاذا هو نهب رغبة مفاجئة في أن يلعب بالجنود الرصاصية التي كانت ترقد في علبها الخشبية. أخفى الكتاب تحت حوض الغسيل. وفتح درجاً ضربت عليه العنكبوت بنسجها. كانت منضدة الدراسة صغيرة فلاتتسع لحشد كهذا. لذلك جلس أرضاً. وصف رماة القنابل اليدوية في صفوف من ثمانية أفراد. ثم تلاهم الضباط الفرسان وهم يحيطون بحملة الأعلام. ووراءهم المدفعيون بمدافعهم وحملة البنادق والمساعير.

ساروا جميعاً بمشية منضمة على ايقاع مزامير وطبلات، ترافقها طبول كبيرة. أما رجال الهاون فكانوا مزوّدين بنابض يسمح بإلقاء كرات زجاجية الى مسافة أبعد من متر.

- بوم..! بوم..! بوم..!

كانت تتساقط أحصنة، ويهوي حملة أعلام وطبول، وكان على الزنجي إيليخيو أن ينادي به ثلاث مرات لكي يقرر غسل يديه وينزل الى غرفة الطعام.

منذئذ، احتفظ مارثيال بعادة افتراش البلاط. ولما رأى فوائد هذه العادة دُهش لأنها لم تخطر له من قبل. ذلك أن الأشخاص الكبار الذين يلتصقون بمخمل الوسائد يعرقون كثيراً. وبعضهم له رائحة الكاتب بالعدل- كدون آبونديو- لأنهم لم يعرفوا أبداً وهم مستلقون برودة الرخام. فمن الأرض، ومن الأرض فقط، يمكننا الإحاطة التامة بزوايا وأبعاد غرفة. وجمال الخشب، وطرق الحشرات السرية، وزوايا الظلال يجهلها المرء كلها وهو واقف. واذا ماأمطرت كان مارثيال يختبىء تحت البيان، فتهتزّ علبة الأنغام عند كل رعدة دافعة كل النوتات لتصدح بالغناء. ومن السماء كانت تهبط أشعة لتبني تلك القنطرة من الايقاعات: أرغناً وصنوبراً في الريح، ومندلين ذات قضبان.

IX

احتجز ذلك الصباح في حُجرته، وسمعت دمدمات في كل أرجاء البيت. وقُدِّم له طعام يكفي حاجته ليوم واحد. لقد تسلى وهو يتصفح صور الرحلات الى أن جعله الزميم المتصاعد المتسرب من تحت الأبواب، ينظر من خلال المشبكات. اذ وصل رجال يلبسون ثياباً سوداً ويحملون تابوتاً ذا مقابض من البرونز. كانت به رغبة في البكاء؛ لكن ظهر في تلك اللحظة الحوذي ميلتشور، وأعلى «جزمته» الطويلة الرنانة يلمع كأسنان كشفت عن بسمة. بدأا لعب الشطرنج متخذين من البلاط رقعة. كان ميلتشور حصاناً، ومارثيال ملكاً. كان يستطيع التقدم خطوة خطوة. أما ميلتشور فكان عليه أن يقفز خطوة الى الأمام واثنتين الى الجانب، أو بالعكس. امتد اللعب الى مابعد الغسق.

لما استيقظ، ذهب الى تقبيل يد والده الذي كان يرقد على سرير

المرض. أحسّ المركيز بتحسن وتحدث الى ابنه مستخدماً الأمثال الشائعة. وكلمات «نعم، ياأبي»، و«كلا، ياوالدي» كانت تنحشر بين حبة وأخرى من سبحة الأسئلة، كأجوبة المساعد في القدّاس. كان مارثيال يحترم المركيز لكن لأسباب لم يُوفق أحد الى تخمينها. ربما كان يحترمه لأنه ذو قامة مديدة، ويخرج في ليالي الرقص وصدره يلمع بالأوسمة. أو ربما كان يغبطه على سيفه وتطريزات بزة ضابط المليشيا التي يرتديها؛ أو لأنه أكل في عيد الفصح ديكاً رومياً محشواً باللوز والبندق وكسب رهاناً؛ أو لأنه أمسك، ذات مرة، احدى الخلاسيات اللاتي يكنسن البناء، وقد حملها بين ذراعيه الى حجرته، دون شك رغبة في جلدها. اختبأ مارثيال وراء الستارة، ورآها تخرج بعد قليل باكية، مفكوكة الأزرار وهي فرحة بالعقاب لأنها كانت تفرغ أطباق المربيات دائماً بدلاً من أن تعيدها الى الصوان.

كان أبوه رهيباً ومبجلاً، عليه أن يحبه بعد حبه الله. وكان في نظر مارثيال إلهاً أكثر من الإله. لأن عطاياه يومية وملموسة. لكنه كان يؤثر إله السماوات لأنه أقل إضجاراً.

X

ولما نما الأثاث شيئاً قليلاً، عرف مارثيال أكثر من أي شخص آخر ماذا يوجد تحت الأسرّة والخزن والمكاتب، فقد أخفى عن الجميع سراً كبيراً: وهو أن الحياة لاسحر فيها دون وجود الحوذيّ ميلتشور؛ لاالله ولاوالده ولاالأسقف الذهبي في احتفال عيد القربان لهم أهمية ميلتشور.

كان ميلتشور يأتي من أماكن بعيدة. وهو حفيد أمراء مهزومين. في

مملكته فيلة وأفراس نهر ونمور وزرافات. والناس هناك لايعملون كما يعمل دون أبونديو، في غرف مظلمة مملوءة برزم الأوراق. إنهم يعيشون بحيل هي أقوى من حيل الحيوانات. فقد سحب أحدهم التمساح الكبير من البحيرة الزرقاء بعد أن علق بشصٍ مخبأ في جسم اثنتي عشرة أوزة مشوية ومشدودة الى بعضها. كان ميلتشور يعرف أغاني سهل حفظها، لأن الكلمات كانت دون معنى، وتتكرر كثيراً. كان يسرق حلوى من المطابخ ويهرب ليلاً من أبواب الخدم. وفي احدى المرآت رمى بالحجارة أفراد الحرس الوطني، واختفى بعد ذلك في ظلمات شارع الأمارغورا.

في أيام المطر كانت «جزمته» توضع لتجفّ لصق فرن المطبخ. كان مارثيال يرغب في أن تكون له قدمان تملآن فردتي حذاء كهذا. الفردة اليمنى تسمّى كالامبين، واليسرى كالامبان. وكان هذا الرجل الذي يروّض خيولاً جامحة بادخال اصبعيه في مناخيرها، ويلبس المخمل والمهاميز، ويضع على رأسه قبعة جد مرتفعة ولامعة، يعرف أيضاً طراوة أرض من الرخام في الصيف، ويخفي تحت قطع الأثاث، فاكهة وقطعة حلوى مخطوفة من أوانٍ خاصة بالصالون الكبير. كان لدى مارثيال وميلتشور مستودع سري مشترك ملآن بالحبوب واللوز، يسميانه: «أوري، أوري، أورا»، ويلفظانها بقهقهات مسموعة. إنهما الوحيدان اللذان يعرفان بوجود قطعة صغيرة ملأى بالزجاجات الهولندية. لذا فقد نقبا البيت من أعلاه الى أسفله وفتشا تحت أطر الأبواب، وبجهد لاطائل تحته، فوق غرف الخادمات حتى عثرا على علبة من الكريستال المهشم، فيها اثنتا عشرة فراشة رميم فقدت أجنحتها.

XI

لما اكتسب مارثيال عادة تحطيم الأشياء، نسي ميلتشور ليقترب من الكلاب التي كان في البيت أنواع شتى منها. كالمرقّط الكبير . وأنثى الضرو التي تتدلّى أطباؤها. أما السلوقي فهرم حتى لايستطيع اللعب. و(لانودو) الذي يطارده الآخرون في أوقات محددة ولاتجد الخادمات بدأ من حجزه.

كان مارثيال يفضل (كانيلو) لأنه يسحب أحذية من الغرف، وينبش أشجار الورد في الفناء. كان أسود اللون دائماً لتمرّغه في الفحم، أو مغطى بتراب أحمر. كان يلتهم طعام الآخرين، ويعوي دونما سبب، ويخبىء عظاماً مسروقة عند سفح النبع. ومن حين لآخر، كان يتناول بيضة وضعت للتو، مطوّحاً بالدجاجة في الهواء بضربة عنيفة من خطمه.

كانوا جميعاً يركلون كانيلو. واذا ماحُمل بعيداً، كان مارثيال يُصاب بالمرض. غير أن الكلب كان يعود منتصراً وهو يهز ذيله بعد أن تُرك بعيداً جداً عن بيت بينيفنسيا، محتلاً مكانة لم تحتلها الكلاب الأخرى أبداً، رغم مهاراتها في الصيد ويقظتها في الحراسة.

كان كانيلو ومارثيال يبولان معاً، ويختاران أحياناً سجادة الصالون الفارسية ليرسما فوق صوفها أشكالاً من السحب الرمادية التي تتسع ببطء. وهذا الأمر كان يوجب عقاباً بالسياط. لكنّ السياط لم تكن مؤلمة كما يحسب الناس الكبار؛ وينتج عنها، بالمقابل، حجة بديعة لاقامة حفلات من العواء تثير شفقة الجيران. ولمّا كانت ابنة صانع القرميد العوراء، تصف أباها بأنه متوحش كان مارثيال ينظر الى كانيلو ويتغامزان ضاحكين. كانا يتنحبان ليحصلا على قطعة كبيرة من البسكويت. ثم نسيا

كل شيء. كلاهما كان يأكل تراباً، ويتمرّغ تحت أشعة الشمس، ويشرب من ماء النبع، ويبحث عن الظل والعطر قرب شجيرات الحبق. وفي ساعات القيظ كانت المقالع الرطبة تغصّ بالناس. هاهي الأوزّة الرمادية ذات الجيب المعلق بين رجليها المعوّجتين؛ والديك العجوز بذيله ذي الزغب. وهاهو الضب الذي يصيح «أوري، أورا» وهو يسحب من رقبته ربطة عُنق وردية؛ والجرذ الذي يسدّ جحره ببيضة سلحفاة.

ذات يوم، لُفت انتباه مارثيال الى الكلب، فقال:

- غواو! غواو!..

كان يتكلم لغة الكلب ذاتها. وحصل على الحرية الكبرى، ويريد الآن أن يحصل بيديه على أشياء هي خارج متناول يديه.

XII

جوع وعطش وحرّ وبرد. ماكاد مارثيال يقصر ادراكه على هذه الوقائع الأساسية حتى تخلّى عن الضوء الذي صار فائضاً عن حاجته. كان يجهل اسمه، وقد مضى بعيداً طقس العماد بملحه الكريه. لم يعد يريد حاسة الشمّ، ولاالسمع حتى ولاالبصر. كانت يداه تلمسان أشياء سارّة. حينئذ أغلق عينيه اللتين كانتا تلمحان عمالقة ضبابية فقط، ودخل في جسد كان يُحتضر. جسد دافيء، رطب، مغمور بالظلمات.

ولما أحسّ الجسد بانغماسه في كيانه ذاته انزلق باتجاه الحياة. غير أن الزمن صار يجري بسرعة أكبر، وخفّف من ساعاته الأخيرة. والدقائق كانت بسرعة انزلاق أوراق اللعب من يد لاعب.

رجعت الطيور الى بيوضها في عاصفة من الريش. والأسماك جمّدت بطارخها، مخلّفة وراءها مَثْلَجه من الحراشف في قاع المستنقع.

وأشجار النخيل ضمّت سعفها وقد اختفت في الأرض كأنها مراوح مطويّة؛ والجذوع كانت تلتهم أوراقها، والأرض تأخذ من كلٍّ ماهو عائد لها. وكان الرعد يضج في الأروقة، والشعر ينبت في جلود القفّازات؛ ومعاطف الصوف تتفكك لتملأ جلود الخراف المسلوخة النائية. وخرجت الخزن والأحواض والأسرّة والصلبان والمناضد والمشبّكات طائرة في الليل باحثة عن جذورها القديمة قرب الغابات. كل ذي مسامير كان يتخلع. وحملت سفينة شراعية راسية فيما لايُعرف أين، رخام البناية والنبع وأبحرت مسرعة به الى ايطاليا. أما الأسلحة والحدائد والأقفال والقدور النحاسية فكانت تتحطم مشكلة نهراً ضخماً من المعدن يجري نحو الأرض في أروقة دون سقف، كل شيء كان يتحول ويعود الى حالته الأولى. والطين عاد الى الطين مخلّفاً مكان البيت قفراً.

XIII

لما عاد العمّال في الصباح الباكر لمتابعة الهدم، وجدوا العمل منجزاً. أحد مانقل تمثال ربة الخصب وباعه عصراً الى تاجر عاديات. وبعد أن شكا الرجال أمرهم الى النقابة ذهبوا للجلوس على مقاعد حديقة البلدية. تذكّر أحدهم حينئذ قصة شديدة الذيوع عن مركيزة كبيّانياس غرقت ذات مساء من أيار بين أشجار الملانغاس في ألمينداريس. لكن أحداً لم يُصغ الى الحكاية، لأن الشمس كانت تنتقل من الشرق الى الغرب، والساعات التي تنمو الى جهة اليمين في آلات الزمن هي التي تمضي بالناس على شكل أكثر وثوقاً نحو الموت.

حق اللجوء

«إن لجوء السياسيين الملاحقين الى بعثات أجنبية يحترم كحق أو تسامح انساني، بالمدى الذي تسمح بها الاتفاقيّات وقوانين بلد الملجأ».

المادة ٢ من الاتفاق الصادر عن مؤتمر دول امريكا المنعقد في هافانا ١٩٢٨ .

الأحد:

اليوم أحد، لذلك وصل سكرتير الرئاسة ومجلس الوزراء حوالي الساعة العاشرة، الى قصر ميرامونتس، بعد أن لبث زمناً طويلاً يتأمل لعبة ميكانيكية معروضة في محل قريب. اليوم وخاصة في الصيف، تغص بالناس الكنائس أو الشواطىء.

في أيام الأسبوع الأخرى، لايكاد السكرتير يعمل بصورة ناجعة في أمور ذات أهمية بسبب العرض الذي لايكل من السفراء، وكبار الموظّفين، والشخصيات الأجنبية، وحكام الولايات النائية، وأصحاب المطالب الذين يرغبون في أن يستقبلهم الرئيس، أو في أسوأ الأحوال نائب الرئيس الذي لاسلطة له:

«سأكلم السيد الرئيس بموضوعك». كان يقول ذلك وهو يفخم صوته. ويعدئذ يقابل الرأس الأول للدولة: «سيدي الجنرال، لقد حصلوا لنا على نساء ايطاليات من النخب الأول». (والسعيد من يحظى بهن)-

كان يضم أصابع يده اليمنى ويفتحها فتترك قبلة تهيم في الفضاء، وهي تنطلق من رؤوس الأنامل.

كان الرأس الأول للأمة قد أعلن منذ أسابيع: «سئمت هذا القطيع الخلاسي الذي تأتيني به من عند لالولا. ووصلنا الى وضع نحتاج فيه الى نساء أوربيات أنيقات، ناعمات وشيقات الحديث». أطل السكرتير على حديقة فناء هذا البيت الكبير، الذي هو تقريباً من طراز الامبراطورية الثانية. وهو مؤلف من طابق واحد لم يسكنه الرؤوساء المتأخرون بسبب عدم توفر الراحة فيه، وغرفه ذات الطابع التاريخي، وموقعه غير الملائم في حالة وقوع تمرد عسكري، لأنه في منطقة رمي بطارية قريبة. خلف أشجار القبس المقصوصة، كان الرقيب راتون يطعم السلحفاة كليوباترا بالخس. قال العسكري وهو يبرز صحيفة: «هل رأيت صحف اليوم؟». . قال هتلر لجنوده: (أيها الجندي أنت ليس لك قلب ولاأعصاب. في الحرب لايحتاجها المرء. حطم في نفسك الشفقة والعطف. اقتل كل روسي سوفييتي. لاتتوقف اذا التقيت بعجوز أو امرأة، طفلة أو طفل، اقتلهم، بذلك تنجو من الموت، وتضمن مستقبل عائلتك ويغمرك المجد إلى الأبد). الى الجحيم هم! ماأقول به أنا: (نظريات كلاوزفيتز. ماكان أعظمه هذا البروسي!). لطالما أبدى السكرتير دهشته من عبادة راتون لكلاوزفتز، الذي كان يعزو اليه أنه مخترع الحرب الشاملة على نمط الخيال العلمي. (آلات ذات لون أحمر فاقع تدخل المدن، وتضغط على البيوت من مستوى الرصيف. ورافعات ترفع الأبنية في الهواء وتطوح بها من ارتفاع شاهق فوق بؤر المقاومة. قاذفات لهب بأفواه أنفاق. عربات اقتحام بثلاثمائة جندي داخلها). حرب شاملة، عن مخترعها يحفظ أخباراً من أقوال رقيب آخر، وهذا كان يستقي معلوماته من عريف مساعد

مـلازم، لديه نسخ من: (عن الحـرب وحـملة واترلو). كـان يروق له أن يشرح مفاهيمه بصوت عال: لأي سبب استطاع هذا الكلاوزفيتز أن يتفوق على نابليـون؟ فكر السكرتيـر أكثـر من مـرة في ولع هـذا الجندي البسـيط والمحـدود بالحرب الشـاملة التي لم يشـهدها قط، وهو لايقـوى إلا على البكاء ازاء هجوم من سلحفاته، ويبذر مرتّبه بشراء جنود من الرصاص من أطفال الحي. كان يتناول القربان بشيء من الانتظام. أما في الأدب فكان يحظى بنعمـة: (الكتاب الوحيد)، الذي لايعوّض ولايبدل والذي مازال بعـد قراءته للمـرة المئـة، يشبع مـيوله في الـجمال والـمغامـرة والحب، مدغدغاً إرادته الخفية في السلطة. وقد يجلب، رغم وضع رتبته الدنيا ومحدوديته مايجد المرء مثله فقط في كتابات بوسيو وايبكتيت وماركو اوروليـو: (الكونت دومـونت كـريستـو). لكنه في الوقت ذاته كان يحلم بحروب رهيبة، مفنية وشاملة. كان يحس أن خلافاً ناشباً بين بلدنا والبلد المجاور، بسبب حدود محددة بصورة سيئة، نظرية كما هي بدائية صالحة فقط لرسمها في الخرائط الجغرافية المدرسية، هذا الخلاف قد لايحسم مرة واحـدة بواسطة السلاح. (أما باستخدام الأسوأ!)كان يضيف وهو يحلم بترسـانة تحـوي جـميع الوسـائل الرهيـبـة التي تتـمثل في أفـلام المغامرات بين النجوم، المعروضة أيام الآحاد، مترجمة الى الاسبانية في الصحف المحلية.

دخل السكرتير مكتبه المزين بطراز بومبي، حيث كـان ينتظره رزم مختلفة تسهل مراجعتها قرب محبرة يحميها نسر نابوليوني. بعد انتهاء العـمل وبانتظار أن يعـد له الرقـيب راتون طعـام الـغداء، طفق يمـشي في القـصر الذي أعطاه اتسـاعـه، وقـد اقفـر من الناس والبـوابين والحـرس، شعوراً لذيذاً بالوحدة. اجتاز الصالـون الكبير من طراز لويس ١٥ بطاساته

الرخيصة وبيانه الأبيض ذي الحواف المشغولة، وغرف الرئاسة المقفرة بأثاثها من طراز أسكوريال المقلد والمكتبة الزاخرة بكتب مومسن، داري، ميشليه، وسيزاركانتو، وغيزو. ،وهي كتب لم تُقرأ أبداً. أما الغرف المخصصة نظرياً للسيدة الأول، فكلها مؤثث بطراز حديث: جنيات ماء ذات ألوان متعددة تحمل مرايا ورسوماً باكية كانت تزين ستارة خلفها تختفي مغسلة وحامل ثياب. . ثم قاعة المقابلات وتقديم أوراق الاعتماد، وهي ذات طابع قروسطي بدعائمها من خشب الجوز وخزنها ومجموعة سجادها التي تستخدم ممراً الى الكرسي الرئاسي الشبيه بكرسي سان لويس وهو يقيم العدالة تحت شجرة بلوط.

أُعد الغداء ودخل السكرتير غرفة الطعام التي يتجلى في رسومها من الستاورات والباخيات أسلوب فوف- كليكو في لوحة زيتية معروفة، تظهر فيها زجاجة شمبانيا- بعلامتها الواضحة متى تُفتح تطلق الى الفضاء زبداً من ملائكة صغار وكروبيين. جلس السكرتير عند مقدمة المنضدة الكبيرة في مقعد الرئيس ذاته. والحقيقة أنه كان يشعر أيام الآحاد أنه رئيس الى حد ما في قصر ميرامونتس. وقد اتخذ ذات مرة الشارة الرئاسية ليحس بالانفعال الناجم عن السلطة.

«أتعرف يا سيدي مايقال في الشارع؟ الجنرال مابيّان انتفض مع قطعاته. يوجد اضطراب هائل في المدينة. انماينقص هنا حرب شاملة، لاتبقي على أحد من الجانب الآخر من الحدود». لكن السيد السكرتير لم يجب، وأخرج من جيبه كتيباً يضم رسوماً لبول كلي. كان السكرتير يحب عمل بول كلي أكثر من أي شيء آخر في الفن التشكيلي.

٢- الاثنين:

النهوض باكراً لم أتعود عليه أبداً. ثم تكرار الحركات ذاتها. اليوم

كـالأمس، كـعشـرين سنة من قـبل. لقـد شـخت في المـرآة. ومـوسى الحلاقـة. ثم الحركـة ذاتها والسحنة ذاتها والفجوات العنيدة، العنيدة دائماً. والأسنان الآن. إنها سد من الحركات يتطلبها الجمهور- خاصة اذا كنت سكرتيراً للرئاسة ومجلس الوزراء- مابين السرير والشارع، بين ماكان النوم وماسوف يكون السير مرتدياً. فالانسان منذ ولادته ووجودُه يترافق بزحف وانزلاق وعبور؛ وهو مغلف بما لايُحصى من أنواع النسج: جوخ أو قماش فاخر، ينبغي أن تبقى مرتبطة الى الأبد بتاريخ وجوده. فبين القماط الأول حتى البزة الرفيعة التي يلبسها يقطع رحلة عمياء من قميص الى قميص ومن سترة الى سترة حتى يدخل الجنازة، حيث يقوم غيره بإلباسه هذه المرة. تبقى ذكرى البزة الخضراء أيام العطالة عن العمل، التي حالت الى اللون الأصفر. تبقى ذكرى الزرقاء المتصالبة الانكليزية التي كانت رفيقة أولى بوادر النجاح. وتلك التي كنت ألبسها لما خطبت سونيا. وتلك الرمادية التي خلعتها أمامها بينما كانت تقضم تفاحة وهي عارية. وتلك الأخرى المترافقة مع تواريخ كما الخمور المعتقة.

منذ أن يفتح الانسان عينيه حتى يغلقهما -وحتى بعد اغلاقهما- لايفعل شيئاً إلا القيام بدور مظلة، لها عدة أغلفة. أغلفة ينسب اليها، فوق كل شيء، مزايا تحدد الوضع والذكاء والحالة الاجتماعية. والآن سرْ. سر باتجاه قصر ميرامونتس بثياب لها ثمانية عشر زراً، مزررّة باحكام. (اثنان للجيبين الداخليين، ستة للكمين، وثلاثة للسترة من الأمام، وستة للصدار).

اليوم موعد انعقاد جلسة مجلس الوزراء في التاسعة للنظر بمطالب البلد المتاخم بشأن الحدود. أصل الى قصر ميرامونتس وأفاجأ بحدث لاأهمية له بالنسبة لعموم العابرين. الرقيب راتون يحتل الموقع وهو مسلّح

بنطاقين متصالبين من الطلقات. تُلاحظ (نرفزة) على الحرس الذين يُرى دهليزهم من الشارع وهو ممر الدخول أيضاً. في تلك الأثناء يصل وزير المالية في سيارته الجاغوار. يُفتح له باب السيارة بالأدب المعتاد. لكنه حين دخل الممر أُمسك به بعنف من كتفيه ووضع تحت حراسة عسكرية. والشيء ذاته يحدث مع وزير الأشغال العامة الذي يصل بسيارة كاديلاك. وكذلك مع وزراء الصحة والداخلية والاتصالات. قد رآك راتون. يقبل نحوك. ألن تدخل يادكتور؟ اليوم انعقاد الجلسة. وتقول: إني آتٍ. أريد شراء سجائر من الناصية. «أنا أبحث لك عنها». وتقول بصوت آمرٍ حتى اختلط الأمر على الرقيب راتون: «رقيب! في أي حال لايمكن لجندي أن يترك موقعه المناط به. أعد قراءة كلاوزفيتز. يبدو رغم كل شيء، أنك لم تقرأه جيداً». ظل راتون مبهوتاً. لكن السكرتير يحس أن عينيه تلاحقانه بعناية حين يتوجه الى كشك مفتوح في زاوية احدى الحانات. عدا ذلك سُرّ الرقيب لما أسمعه خشخشة مخدرة؛ إنها خشخشة الماوزر، وهي تقلب بيد رشيقة. وتقول لنفسك: «ليس للحانة منفذ الى الشارع الآخر». أعطني علبة تشاسترفيلد. وعينا راتون لاتتخليان عن مراقبتك. لكسب الوقت، عليك أن تعلّل مكوثك بحركات يراها الرقيب جيداً: «أعطني مرطباً من هذا». إنه بارد جداً. لكنك تقول: «ليس بارداً. أعطني قليلاً من الثلج من فضلك». عناوين الصحف: الطيران ينضم الى حركة الجنرال مابيان. وتضيف أنت: وحامية القصر أيضاً. «مرطب آخر». في تلك الأثناء، يتصاعد صخب عنيف من كتيبة الحرس. لقد وصل رئيس الجمهورية مع رئيس مجلس الوزراء. أمام هيبة الصحافة، انفعل الرقيب راتون، وترك محرسه ودخل القصر. تسمع طلقات متفرقات- محاولة مقاومة غير مثمرة من جانب الرئيس، كما علمت فيما بعد-. انتهزت هذا الظرف لتخرج من الحانة وتسير سريعاً حتى مكاتب ناشيونال سيتي بنك

اوف نيويورك، الذي كان غاصّاً بأناس غافلين عما يجري على بعد خمسين متراً منهم. تسلك الشارع المجاور وتتوغل في حي ذي بيوت عتيقة حيث لاتعرف أحداً. عزمك الوحيد هو البحث عن ملجأ في احدى سفارات دول امريكا اللاتينية. تفكر بسفارة المكسيك الفائقة الجمال، بحديقتها الكبيرة المزينة على الطراز الغوطي. تفكر بسفارة البرازيل حيث يوجد مسبح جيد.

تفكر بسفارة فنزويلا التي تمتلك مكتبة رائعة وحيث يقدم الأريباس[1] مع الفطور، ولكنها جد بعيدة من هنا. وأنت تقف على بعد مائة متر من قصر ميرامونتس. خرجت اليوم وفي جيبك بيزو واحد أو اثنان فقط. ناهيك عن أن قوات مابيان ستحتل سريعاً جوار السفارات الأميركية اللاتينية لتجنب «اللجوء». ولما تجاوزت ركن كنيسة عذراء بارآمو العجائبية، ذات المعجزات العديدة الشهيرة، تتوقف أمام بناء متواضع ذي ثلاثة طوابق. وفي الطابق الأوسط منه يرفرف مشدوداً الى الشرفة علم بلد امريكي لاتيني يرتسم في الشريط الأبيض منه الشعار الوطني: فهدان في حالة استرخاء- ولكنهما يقظان دائماً- فوق أجزاء مثلث مذهب، في وسطه تشاهد يدا امرأتين: هندية وبيضاء (هناك النساء البيض لايتوجهن بالكلام الى الهنديات) وقد حطمتا لتوهما سلاسل الطغيان. في الجهة الأخرى قبالة السفارة المتواضعة كانت تقوم الواجهة الجانبية لمحل متعدد الجنسيات أمريكي شمالي، تنتشر فروعه في جميع أرجاء القارة.

تتردد ثم تدخل. تصعد درجاً صغيراً. تدق باب السفارة حيث يوجد تنبيه على لوحة صغيرة بأن السفير لايستقبل أحداً حتى الساعة ١١ قبل الظهر. يفتح لك السيد السفير وهو بالبيجاما. (ألم تر اللوحة)؟. تنحّيه

١- طبق من خبز الذرة والبيض والزبدة.

بلطف، وتحتل مقعداً يغمره الضوء وتقول: «إني باق». «لاأفهم الأمر أيها السكرتير، واعذرني إن لم أعرفك في البداية، لكن لمعان هذا البلور...». «قام الجنرال مابيان بانقلاب. جميع أعضاء الحكومة في الأسر. واستطعت الهرب. والآن ألجأ الى حمى هذه السفارة وفقاً للمبادىء النبيلة المعلنة في هافانا في مؤتمر بان امريكانا لعام ١٩٢٨».
ولكن السيد السفير احتقن فجأة ثم انفجر: «لكن هذا مستحيل ياسيدي، مستحيل. فهذه سفارة بلد فقير وهي صغيرة جداً: إنك تعلم أفضل من غيرك بؤس المرتبات التي يقبضها سفراء بعض دولنا». وتقول: يوجد من يرسل لي خمسمائة بيزو شهرياً. ويرن خلفك صوت امرأة: «لدينا غرفة مقبولة جداً، إن كان الأمر يتعلق برجل واحد. يكفي أن نسحب منها بعض الحقائب» وتلتفت. السفيرة[٢] الجميلة التي تلبس «كومونو» أهدته لها زوجة القنصل الياباني، تحمل اليك فنجاناً من القهوة: «آمل ألا تضجر كثيراً مع هذين العجوزين».

حظر التجول كان يبدأ من الساعة الرابعة وحتى إشعار آخر. في الساعة الثامنة سيتوجه الجنرال مابيان الى الأمة. وفي الساعة الثامنة توجه الجنرال مابيان فعلاً الى الأمة متحدثاً عن أبطال الاستقلال وعن الحرية المستعادة والعدالة الاجتماعية المقبلة، وعن العلم، والجيش المؤتمن على أمجد التقاليد، وعن أشياء أخرى من هذا القبيل؛ وكذلك ضم الحركة المجيدة اليوم الى مُثُل رجال أمريكا الكبار والى أشياء أخرى من هذا النوع. وأعلن أن يوم الثلاثاء سيكون يوماً عادياً، وإن كان حظر التجول سيظل مفروضاً منذ الساعة الرابعة بعد الظهر. أعلن عن البدء بالمشاريع العامة الكبرى فوراً: سد كامبوكارا، الجسر على نهر غوتال،

٢- المقصود هنا دائماً زوج السفير.

سيكون اعجوبة هندسية؛ خط حديد الغرب، والاوتستراد من قرطبة الجديدة حتى بويرتوكاديناس. وتقول: «جميلة هي! لم يشرع بالحكم بعد وهاهو يسرق. يجب النظر الى مساومة اللجان حول العوارض والقضبان والمسامير وفرش الحصى ومراكز البرق الخ. . الخ. . حتى نعرف ماذا يعني خط حديد الغرب، هذا دون أن ندخل، مع ذلك، في فصل المواد المتداولة واقرار الجسور والمحطات. أما بالنسبة للاوتستراد، فاللعبة بسيطة ولاتترك آثاراً. العرض ٨ أمتار في المشروع المقرر يصبح ٦ , ٧م ساعة السير فوقها. على مدى الاربعمائة كيلومتر، تصور الربح؟» في الليل لعلعت طلقات في المدينة. قال السيد السفير: «أمور مضحكة. الانقلابيون في أمريكا اللاتينية يخرجون دائماً منتصرين». وتقول: «السيء في الأمر هو الجثث، التي لم تكن أبداً لأناس من كانتري كلوب أو من الأحياء الغنية». «ان ترسانات أمريكا اللاتينية لم يكن لها زبن إلا من الفقراء».

٣- يوم اثنين آخر (أي اثنين).

إني أضجر. أضجر. أضجر. فأنا محاط بأشياء تجلب عناصر جديدة الى ضجري. ليس الأمر في كوني حبيساً أو لاأستطيع القفز حتى السينما التي هي على بعد ذراع من هنا. (يوجد حارسان مرابطان في مدخل السفارة). أو أن مسكني قد اختُزل الى غرفة واسعة بسرير عريض مع صندوق لعلب الحساء ماركة كامبل، استخدم منضدة بين تقويم الجنرال إلكتريك (مناظر قناة كولورادو الكبرى، والغولدن غيت، جبال الروكي، صيد سمك التروت. .) وبين تقويم آخر لشركة منتجة للاسطوانات ماتزال فيها أوراق تتعلق بـ. واندالاندوفسكا، آل جونسون، اليزابيت شوارتز كوف، لويس ارمسترونغ، دافيد اويستراخ، وفن

الوشم». . أسوأ مافي الأمر الجوار المحيط بي: قناطر فناء كنيسة عذراء بارامو العجائبية التي تقع في مستوى عمودي على نافذة غرفة الطعام، هذا المنبه المعماري الطبيعي كان يقذفني كل ساعة من اليوم بكلمات الصلوات اللاتينية. وقد صرت أحفظ عن ظهر قلب كلمات نشيد العصر.

حول الملك في مخدعه

تنتشر رائحة النرجس الرقيقة.

ومع امتداد الأيام، أيام الحصار، انتهيت الى فقدان الاحساس بالتواريخ. انظر الى محل خردوات وحدائد غوميز اخوان (مؤسّس عام ١٩١٢. يقرأ في الواجهة).

وأظل مذهولاً من قدم الأشياء التي تباع هنا. لأن تاريخ صناعات الانسان منذ مابعد التاريخ حتى المصباح الكهربائي مبين هنا بالمواد والأشياء والحاجيات التي تعرض في محل خردوات وحدائد غوميز اخوان: حصر وحبال، وأمراس اوليسيس. موازين وأوزان تحدثنا عن أزمنة سحيقة تخلى فيها الانسان عن بيع الفواكه واللحوم والأسماك جزافاً أو بالقطعة وبدأ يبيع بضائعه بالوزن، مقحماً بذلك مع التجارة المحاكم والعدالة. المهاريس الحجرية ذات المسام الشبيهة أيضاً بتلك التي كان يستخدمها سكان تلك الأراضي البدائيون.

الانيار الكبيرة والصغيرة التي تثير أموراً عديدة؛ قدور ومسامير اسبانية مربعة نصف شبر عرضها، تشبه شبهاً تاماً تلك التي انغرست في جسد المسيح. وفؤوس ذات ثقل مفضلة لدى الفلاحين هنا ومطابقة في شكلها وسماكتها للخراطيم التي يهزها فلاحو المنمنمات الزراعية والغنائية (ترتبط دائماً بشهر آذار) المصورة في كتب: الساعات القروسطية.

لكن الشيء الثابت هنا، المشابه لنفسه دائماً، رغم أجوبة الكنيسة ودروسها وتراتيلها ورغم عتق الأشياء الحديثة في محل خردوات وعاديات غوميز اخوان كان: البطة دونالد. كانت البطة ذات الساقين البرتقاليتين تشرف في زاوية من زوايا الواجهة، كأنها انسان من الكرتون-الحجر، تشرف على عالم صغير من القطارات العاملة، وخزائن بفواكه من شمع، وبنادق رعاة البقر، وجعب ودراجات مع حواسب.

كانت هناك على الرغم من أنها تباع ويعاد بيعها خمس عشرة مرة في اليوم. ومادام الأطفال يريدون «هذه» التي في الواجهة فان يدا أنثوية كانت تقبض عليها من ساقيها البرتقاليتين وتعلق محلها بعد ذلك بقليل (بطة دونالد) أخرى، طبق الأصل. هذا التبديل المستمر لشكل بشكل آخر مطابق، ثابت، منتصب في موطئه ذاته كان يجعلني أفكر بالأبدية؛ بالأحرى، كان الله قد تجلى من وقت لآخر بفعل قوة عليا (أهي أم الله؟ ألم يقل غوته: شيئاً حول هذا الأمر؟) قوة هي علامة على أبديته. وفي لحظة التبديل يكون العرش شاغراً، فتحصل حينئذ كوارث السكك الحديدية، وسقوط الطائرات، وغرق السفن عابرة المحيطات، وتشتعل الحرائق، وتنطلق الأوبئة. هذه الفرضية وحدها تلقي أرضاً بهرطقة مارثيون الكريهة التي ترى أن عالماً قبيحاً لايمكن أن يخلقه إلا اله قبيح. وكانت بطة المحل تجعلني أفكر أيضاً بلغز سهم زينون الإيلي: سهم ثابت دائماً وشبيه بذاته، يتبع خط سير سريع يتجدد خمس عشرة أو عشرين مرة، يقوده الى جميع أطراف المدينة وأحيائها. وهذا يعني لي أيضاً عنصراً لازمنياً، كما هو القطار الكهربائي الصغير الذي يتابع ليلاً نهاراً سفره الذي لاينتهي على ثلاثة أمتار من القضبان دون أن يتخلى عن اشعال ضوء أحمر صغير عند كل دورة. أسأل السيدة السفيرة: «اليوم جمعة؟»

«اثنين ياولدي، اثنين». لم أكن أقرأ الصحف أيضاً. إني أعرف الجنرال مابيان بالقدر الكافي وكذلك العسكريين الذين معه. أتصوره يسأل مساعده: «كيف حال تلك النساء الأوروبيات الأنيقات الناعمات الشيقات الحديث؟». «أنا متأكد سيدي الجنرال أن تلك التي تصاحبها هي عنزة كبيرة تسمى هيبوليتا، تقطن قريباً من حديقة تاديو». «يجب أن نحصل على بيت في الخارج، أيها الملازم». «بالأمر، سيدي الجنرال».

عدت الى النافذة لأرى البطة دونالد الثامنة عشرة التي سرعان ماأبدلت بالرقم التاسع عشر هذا اليوم.

٤- يوم اثنين يمكن أن يكون جمعة:

كان السيد السفير برما قلقاً، مضطرباً، بسبب نزاع الحدود الذي يصبح كل يوم أكثر بعداً عن حل ممكن، والآن أكثر من قبل، لأن الجنرال مابيان بعزمه على إلهاء الرأي العام عن الحوادث الدموية لانقلابه- كانت لاتزال تئز طلقات في الليل- كان يفعل كل مايستطيع لاستقطاب الأمة حول الواجب الوطني في حرب وشيكة: «أنتم أبناء الأبطال الذين..» «المجد لمن يستحق المجد»، «لاموت أفضل من ذاك الذي.. الخ.. الخ.. الخ».. كان يتردد ذلك في أجهزة الاذاعة والتلفزيون كل ساعة.

أعلن الجنرال مابيان أن يوم كذا- ماكان اللاجيء يعرف إن كان يوم ١ أم ٢٨ من ذلك الشهر- ستقام مناورة للدفاع الجوي في المدينة، - وذلك للتأثير على السكان الرأسماليين الذين كان لايزال له بينهم أعداء كثر. زوِّد السكان جميعاً بكتيِّب يشرح لهم فيه ماذا ينبغي لهم أن يفعلوا كيلا يتأثروا بسقوط القذائف «أثناء سقوطها الطبيعي». «هل وضع جريدة مفتوحة على الرأس يقي بصورة كافية؟» «كلا». هل المظلة المفتوحة تقي كفاية؟» «كلا». هل غطاء السيارة يقي وقاية كافية؟. «نعم! وان كان ينصح

بانزال زجاج النوافذ الجانبية، ويتجمع الركاب أكثر ما يمكن في وسط السيارة. وعلى السيارات، متى يبدأ القصف المدفعي المضاد أن تتوقف جانب الرصيف الأقرب مطفأة الأنوار». وجاءت الليلة العظيمة. كان الجنرال مابيان وهو بلباس الميدان الكامل، ورباط الخوذة غائص في لغده، المخرج الأعظم والمشرف الأكبر على المناورة، وهو يقود كل ذلك من هضبة مزودة ببطارية مضادة للطائرات. اشارة ضوئية. صفارات. تعتيم تام. انتظار. «إنه صوت الطائرات المعادية». وبحيلة من حيل المنطقة المدارية، حدث في اليوم العتيد، يوم كذا (الموعود)، أن هبط ضباب كثيف من كل أرجاء المنطقة المحيطة. والطائرات المعادية لم تر شيئاً تحتها، ماعدا غازات براقة. والمدفعيون تحت ُلم يروا شيئاً ماعدا سحباً رمادية بلون الليل. وصرخ الجنرال مابيان حانقاً: «ليطلق الجميع». دامت الجلبة نصف ساعة. كانت الطائرات تمر ثم تعود لتمر دون أن تعلم شيئاً عن قذائف نظرية، موجهة دائماً الى حيث لاينبغي لها أن توجه. وفي النهاية عادت الى قواعدها. ولما انتهى كل شيء عاد الجنرال الى قصر ميرامونتس سيء المزاج وقال: «ضعوا مسؤول الأرصاد في السجن». وقال مساعده بهدوء: «في الأحياء الفقيرة سقطت ضحايا عديدة نتيجة- لسقوط القذائف سقوطاً طبيعياً- تصوروا: بيوتهم سقوفها من كرتون. سبعة عشر قتيلاً وكثير من الأطفال والجرحى». «هل نوقف المعلومات». «في الحال. وحذِّر الصحف ان وصلها شيء منها، فاني أفرض، أفرض الرقابة».

لكن خصام الحدود أخذ يزداد حدة. ففكرت بشيء أستطيع أن أساعد به السفير الذي قالت البارحة زوجه الجميلة عنه: «إنه غبي». وبدأت بدراسة تاريخ البلد المجاور دون أن أعرف على وجه التأكيد ماذا

يمكن أن أجد: لقد اكتشفه كولومبس في رحلته الرابعة. لم يذكر شيئاً عنه، لأنه -وقد عرفنا ذلك من كتابات رياضي مغربي عثر عليها بعد وفاته، كان حينئذ رباناً لسفينة القيادة وينتمي الى أسرة ابراهيم الزركلي- نكرر لم يذكر عنه شيئاً، لأن كولومبس الذي كان مريضاً بالحمى حينئذ، لم يشأ أن ينزل الى الأرض المخملية، رافعاً العلم بيده لكي يعلن: ملكية هذه الأرض باسم بلد.. «الخ.. الخ. ولم يشأ أن يرسل غيره لأنه كان يعلم أن الراية ستنصب ازاءه ويتحول قماشها البروكار الى مروحة تدفع الهواء الى وجهه بعذوبة ملحة. وهكذا بقيت راية الملوك في مكانها، ثم أقلعت السفن وظل البلد المجاور دون تثبت من اكتشافه وسط جدل أكاديمي يتجدّد بين أنصار» لقد نزل «وبين» لم ينزل، حتى قامت مؤسسة علمية أسست لتشجيع دراسة اللغة العربية، بنشر نص الزركلي المبين. بعد اكتشاف البلد المجاور وصلت اليه الدفعة الأولى من رجال الحضارة: الولاة، والمراقبين، والنبلاء المفلسين، وحثالة صيادي السمك البلنسيين. كلهم غشاشون، وكلهم من كبار مغتصبي نساء الهنود؛ ثم وصلت بعدهم الدفعة الثانية من القضاة ورجال القانون والضرائب، والمستشارين محولين المستعمرة في أكثر من قرنين الى مستثمرة واسعة ذات قطعان ماشية وحقول ذرة على مدى البصر، وبحر من البساتين كما في اسبانيا.

لكن مالبث أن ظهر ذات يوم في هذا البلد نسخة من العقد الاجتماعي لروسو، المواطن السويسري. ثم بعد ذلك كتاب «اميل»: الأطفال في مدرسة روسو يتخلون عن الدراسة في الكتب. وينكبون على النجارة وملاحظة الطبيعة التي تترجم بشق الحشرات واليرابيع التي يقذف بها داخل جحورها. وتلا ذلك الانسكلوبيديا الفرنسية. ويظهر في امريكا

للمرة الأولى شخصية الخوري الفولتيري الغريب الأطوار. ثم مؤسسة عصبة أصدقاء البلد الوطنية، ذات الأفكار الليبرالية. وذات يوم جميل جلجلت صرخة (الحرية أو الموت)، وتحت شعار (الابطال)، سيمضي قرن من العصيان العسكري والشغب والانقلابات والتمردات والزحف على العاصمة؛ منافسات شخصية وجماعية؛ قادة برابرة وآخرون متنورون؛ وجد من يريد تهدئة العواطف دون نجاح، معلما عقيدة اوغوست كونت مقيماً له معابد وناشراً على مدى كبير «كتيب الوضعية». (من المؤكد أن عقيدة دون قديسين مرئيين يعبدون، حظها من النجاح ضئيل. والأمر ليس كذلك في التقويم الوضعي، حيث الأيام تكرس لذكرى كولوميلا وكانت، وحكام التيبت اللاهوتيّين، والتروبادور لهم ذكر، وحتى الدكتور فرانسيا طاغية الباراغواي، حيث يخشى الناس كثيراً سان خوسيه وسان نيقولا وسان ايزيدرو لابرادور، الذي يشق الماء ويحجب الشمس، ويخشون عذراء كاتوتشي المدهشة، ذات اللون الحنطي والشباب الريق، والعجائب).

وهكذا سار البلد الى الخراب. وجردته من قطعان الماشية حملات الصيد واللصوص.

وغيضت زراعته في ذلك الوقت (١٩٠٧) الذي أثيرت فيه للمرة الأولى مسألة الحدود. ويبدو لي أن سكان الطرف الآخر نسوا أن لجنتين عُنيتا بالأمر من قبل، اضافة الى لجنة ألمانية أخرى كان عليها تقديم الاستشارة الفنية، وكانتا قد توصلتا الى حل بديع. إنها خمسمائة كيلو متر من الغابات ماكان يطالب به- ويطالب الآن- أبناء وطني. في هذه الغابة لايوجد مستثمر واحد للأراضي البكر، يمكن أن يكون من أبناء بلدي الذين يتجهون وافدين على العاصمة. وعلى العكس من ذلك يوجد كثير منهم من أبناء البلد المتاخم.

الحل: يوضع نهر ايريبارسي في الاستخدام المشترك. والحدود النظرية تبقى حيث هي وبالمقابل يقدم الطرف الآخر امتيازات مهمة في المواد الزراعية وغيرها الى المستعمرين -ولاواحد- الذين قد يرغبون باستيطان منطقة النزاع. لأنه لايعرف متى تكون الأرض المسلمة الى رائد مستثمر ستبقى في هذا الجانب أو ذاك من الحدود، ان لم تبق في الجانبين معاً. أكثر من هذا، يقوم البلد المجاور بتنازلات كبيرة- كحق المرور، واعفاء من المكوس- للذين يرغبون في الحصول على أراض ضمن مايعتبر منطقة متاخمة.

«رائع! ولكنه رائع!» صاح السيد السفير لما سمع بهذا الحل الممكن. «سيبدو الجنرال مابيان مفاوضاً رائعاً. لن يكون تعديل في الحدو. وبعد اخفاق تجارب الدفاع الجوي يستطيع جنرالنا أن يعلن: لن تكون حرب. ويعيد الابناء الى أمهاتهم والرجال الى منازلهم. ويبقى شرف بلادي مصوناً». «هذا الحل كان يجب أن تجده أنت»، قالت السيدة زوجه التي كانت تنظر إليّ هذا المساء نظرة غريبة.

٥- يوم جمعة في يوم اثنين ويوم خميس في ثلاثاء قادم:

منذ شهور- أي منذ نجاح الحل المقترح لصراع الحدود- صار اللاجىء شخصية لاغنى عن عمله في السفارة. فبفضله انجزت مفاوضات مثمرة لتبادل القطن مقابل التبغ.

وبفضله أيضاً قامت تجارة بأشياء كانت بالأمس كاسدة ومنسية، كالأصواف الجبلية المنسوجة في لندن والتي تشكل جزءاً من الزي الوطني للبلد المجاور. وجُلب لصناعة الحلوى هنا: السكر الأبيض على هيئة عصافير، والرُبّ المركز والمربيات في جرار من الفخار. وكانت تشاهد في المحلات الأحزمة وقبعات من اللباد وبلوزات ذات ياقات مربعة من

صنع ريفي. وبهذا كله، وبكنائس من فخار لحفظ القديسين، وقيثارات من صنع ريفي، وآلات الكمان من بيتاتيتشيه وهي قرية سكانها لوثريون، خلق البلد حوله انطباعاً بوجود فولكلور يحظى باعجاب الأجانب أيّما اعجاب.

ولكن هذا لم يكن نهاية المطاف؛ واللاجيء الذي سئم عطالته في زمن دون زمن حيث يستوي عنده الجمعة والاثنين، والخميس والثلاثاء، أخذ على عاتقه جميع أعمال السفارة.

ففي حين يكون السفير غارقاً بقراءة مؤلفات سيمنون المتجددة دائماً، وقد تقمص شخصية المفتش ميغريه، فان اللاجيء كان يدبج الملاحظات الدبلوماسية، والرسائل السرية ويجري اتصالات مع الخارجية ويكتب تقارير ومذكرات. الخ.. الخ.. الخ.

«تبدو ياسيدي أنك السفير الفعلي لبلدي»، كان يقول السيد القنصل الذي اعتاد أن يزور السفارة على غير انتظار، «كيما يتلصص، ويتجسس»، يقول السيد السفير الذي كان يمقت وجه الحصان الشرير، وجه السيد القنصل.. وذات يوم أعرب اللاجيء عن رغبته في الحصول على جنسية البلد المجاور. وقال لي السفير: «إنك مجنون». «دستوركم الرائع ينص (أخذت الكتاب، قلبت صفحاته، أشرت بسبّابتك الى المادة المعنية) على أن كل أجنبي أقام سنتين في البلد يستطيع أن يطلب التجنس. إني هنا في أرض وطنية لكم. وإني محكوم بقوانينكم. واذا ماارتكبت في هذا البيت جرماً يمكن أن أحاكم فقط أمام محاكم بلادكم».

««لكن... أتفكر أن تبقى سنتين في هذا البيت؟». «لقد مضى علي عدة شهور. أريد أن أذكرك أن زعيماً شهيراً من أمريكا اللاتينية ظل لاجئاً

في سفارة بلد شقيق لمدة سبع سنوات. وهو سجن أطول من سجن ذي النون، أعترف بذلك. ولكنه أقل قليلاً من سجن سيلفيوبيبيكو». «سنرى حين تكمل الستين». «سيكملهما»، قالت السفيرة باقتناع جعلني أفكر بالأشهر - كم شهراً؟ تبقّت لي كي أظل أحيا في هذا العالم الواقع ما بين أبدية الله وأبدية البطة دونالد.

هذا اليوم انطلق السيد السفير باكراً مرتدياً سترة كبيرة، كي يحضر العرض العسكري بمناسبة العيد الوطني. تناولنا طعام الإفطار وحدنا، السيدة السفيرة وأنا. ثم توجهنا الى المكتبة الصغيرة التي خلّفها السفير السابق. «لاتبحث عن شيء ذي شأن هنا»، تقول السيدة السفيرة: هذا السيد كان منكباً على تبيان أن غزاة أمريكا وجدوا في هذي الأراضي جميع العجائب التي تظهر في قصص الفروسية. ومن هنا مكتبته، وباشارة:

(أماديس دوغولا) كابوس؛ بالميرين دو هيركانيا، كابوس آخر؛ الفارس سيفار! كابوسان»

مؤلف: تيرانتي الأبيض «وهذا ثلاثة كوابيس». ربما لم تدخل عالم شخصية تدعى لذة حياتي، تلك التي اختبأت عن الفارس في صندوق نصف مغلق وأخذت تعدد وتظهر مباهج جسد أميرة عارية وتقول:

(تفتح الكتاب بسرعة وهي تقلب الورق بيدها):

أواه ياسيدي تيرانتي! أين أنت الآن؟، لست قريباً مني

لتستطيع أن ترى وتلمس الشيء الذي تحبه أكثر مافي الدنيا.

انظر ياسيد تيرانتي، إني أتمتع هنا بشعر السيدة الأميرة، وأقبله باسمك، أنت ياخير فرسان بني البشر.

إني أتمتع هنا بالعينين وبالفم الذي أقبله نيابة عنك.

أتمتع هنا بثدييها البلوريين وأمسك كلا منهما بيد؛

انظر ماأصغرهما !إنهما مكتنزان، أبيضان، ناعمان؛ المس بطنها وعضلاتها والمكان السري.

آه ماأتعسني: لأني لست رجلاً

لأقضي هنا آخر أيام حياتي. كيف الآن أنت أيها الفارس.

الذي لايقهر؟

لم لاتأتي إليّ لأنني أحبك بخشوع؟

إن يدي تيرانتي جديرتان أن تمسا ماأمسه هنا، وغيرهما لا.

ولتكن غصة تخنق كل من يريد ذلك غيره.

كانت السيدة السفيرة تضحك من مجريات الكتاب ذي النعم المخفية. وزاد ضحكها في فصل: حلم لذة حياتي، الذي تقول فيه الأميرة: «دعني ياسيد تيرانتي، دعني». قلت حينئذخوف أن أبدو متحذلقاً ألا تقرأ المزيد. ولما لُحظ أن الضباط والجنود قد انتشروا جماعات في الشوارع، بعد أن انحلت الصفوف وانتهى الاستعراض الكبير في اليوم الوطني، علم المحبّان أن الوقت حان كي يرتديا ملابسهما ويجلسا في القاعة بانتظار السيد السفير. تناولت السفيرة مذكرة، «لننظم وقتنا وفق ماهو موجود هنا: اليوم الوطني يمنحنا ثماني ساعات من الهدوء. يوم الأبطال، ست ساعات، لأنهم يقدمون شراباً بعد حفلات التتويج. ذكرى الاستقلال المئوية تسع ساعات، وستغدى وحدنا. الحداد الوطني- ستة احتفالات في السنة لمدة أربع ساعات لكل منها مع خطب- لقد جلبت لنفسي شهرة أني (مريضة بالكبد) كيلا أصحب زوجي الى هذه الاحتفالات-. استقبال عيد رأس السنة في ميرامونتس، خمس ساعات أقل أو أكثر. يوم الخميس ثماني ساعات، لأن العرض يترافق مع

غداء في نادي الضباط. أضف اليها الحفلات التنكرية مع تتويج ملكة، والأعياد الدبلوماسية، التي إن ذهبت اليها لُماماً فلكي أغطي المظاهر. ولكننا ستتحرر من ذلك، بحفلات تدشين النصب التذكارية لكل مبرز- انتبه، في هذا البلد يوجد مبرزون-.

وهذا ليس كل شيء. فهناك، حفل استقبال مبعوث قداسته. وزيارة الترس المعلق في مسقط رأس أحد المربين من القرن الماضي. ثم تدشينات السدود، والخزانات، والجسور الخ... الخ... وهذا مايجعل من كل يوم عيداً». . أثناء ذلك وصل السيد السفير مبهوراً، يتصبب عرقاً، ونشاء ياقته مغطى بفقاعات، شاكياً القيظ وازعاج المنصة المنصوبة بمواجهة الشمس. «استطاع الملحقون العسكريون أن يتعرفوا في الوحدات الميكانيكية على جميع بقايا الحرب العالمية الثانية. عداك عن الغبار الذي تثيره المشاة بهذا الهوس الجديد الذي يجعلهم يمشون مشية الاوزة».

٦- أي يوم من الأيام:

السيد السفير، وفاء بالالتزامات المفروضة على الدبلوماسيين الذين يمنحون اللجوء الى سياسي ملاحق، (مؤتمر بان اميركان ١٩٢٨، المادة الثانية، الفقرة ٢ التي تنص: ان المسؤول بعد منح اللجوء عليه مباشرة اعلام وزارة خارجية بلد اللاجيء) قام بالمشار اليه منذ البداية؛ لذلك فان الجنديين، بحربتيهما المشهرتين، يقومان دائماً بالخفارة مقابل السفارة، مزعجين المراجعين القلائل جداً، ممن لاتخضع أمورهم للتشريع القنصلي. لهذا السبب فان الرصاص الذي دوّى على بعد خطوتين منك ذلك الصباح ربما كان قد دق في بطنك. ففي هذا الشارع، بين محل

ألعاب قريب جداً ممن سقطوا جرحى وبين كنيسة عذراء بارامو كانت الشرطة تطلق النار على طلاب يتظاهرون محتجين على الجنرال مابيان لنيته تغيير الدستور باتجاه يضمن له البقاء ثماني سنوات في السلطة مع احتمال اعادة انتخابه، اذا قرر الشعب ذلك في استفتاء. ربما كنت أرغب في أن أكون بين الطلاب صارخاً ملقياً قطعاً من الحديد والحجارة مسقطاً الحرس عن ظهور الجياد. ولكنني ماكنت أستطيع فعل شيء، وأنا أحترق بوضعي هذا، رهن حارسي على الباب. وإني أعرف تفاصيل القمع الذي سيطبق بسعار فريد على الزمرة الأولى من الطلاب، عذاب السجون المكتظة. لكنّ المُعتقلين قد يحالفهم الحظّ أحياناً في اللحظات الأخيرة، دون أن يدروا، فيودعون في فنادق قريبة. أعرف صنوف الإذلال والتعذيب الكلاسيكي التي مارسها الغستابو والـ ف. ب أي الامريكية، التعذيب المستمر بايقاف المرء مدة اثنتي عشرة ساعة فوق عجلة سيارة عتيقة. ولكنهم أدخلوا الآن، الممسوخ على المسرح: الساديين والمنحرفين، الممنوحين صفة قانونية، والسفلة من كل ضرب، يقودهم (باشق) له ظفران طويلان وقاسيان في اصبعي سبابته وابهامه يمكن أن يغرزهما بسرعة في حلق انسان محدثاً جروحاً رهيبة، ناهيك عن المغتصبين والقوادين الحائزين الآن على بطاقات وأوراق رسمية ليبينوا في كل الأحوال أنهم صاروا من عملاء البوليس السياسي للحكومة.

والآن أنت عاشق، وينطبع هذا الحب على وجهك كأنه خطأ أو إثم. فأولئك الذين قتلوا في الشوارع، وإن كانوا من جيل جديد، كانوا معك، وقد ادخلتهم منذ زمن ليس بعيداً عالم الفلسفة العريض. هم أنفسهم، كانوا يقولون ساخرين: «آليتان تحركان الكون، الجنس وفائض القيمة». هم أنفسهم كان يدهشهم أن بعض الفلاسفة الماديين يولون

أهمية كبرى لنصوص قبل سقراط، ضئيلة ومبتورة حتى لاتصل الى رسم فكر واضح. أطللت من النافذة: هناك يرقد بعض الجرحى من أنصارنا ممدّدين على الأرض وقد فقدوا دمهم وهم يزحفون تحت الرصاص الذي مازال منغرزاً في الأعمدة.

تتجه نحو السفيرة وترتمي في حضنها منتحباً. وتقول هي: «رهيب! رهيب! شرطة بلدكم أناس متوحشون». والآن هم أكثر وحشية لأنهم يتلقون أوامر امريكية شمالية. تنتحب، وتواسيك، ثم تسعى الى تهدئتك. فتضجعك الى جانبها. أغمض عيني على لحمها. انه الليل. في أي يوم؟ لاتدري. التاريخ؟ تجهله. الشهر؟ لايهم. السنة؟ السنة الوحيدة المرئية هنا هي سنة محل الحدادة والخرداوات (أسّس عام ١٩١٢). وتقول: «لعلها نقطة ارتكاز». والآن، الحب مرة أخرى. الحب الذي ليس له تاريخ. وكما تقول مغنية فرنسية: «ربما تأتي نهاية العالم، دون أن ندري بها». الحب في هذا المحبس، في هذه العزلة، في هذا الزمن دون زمن يعطيني احساساً شبيهاً باحساس رجل شرب الافيون في بيت مجهول. ولما أفاق تصرف مثل ايليبينور، ملقياً بنفسه في الفراغ، لأنه لم يعرف أين يوجد. ومع هذا، فأنت تحب السفيرة. سيسيلياتدعى. ذراعاها الأبيضان، البضان ضروريان لك. انك تجد فيها -وسط شقائك- حنان الأم وخشوع المربية وحرارة العاشقة. بالقرب من سيسيليا ترسم مخططاً ذا أبعاد واسعة مُعداً لتصفية السيد السفير: ربما كان الزرنيخ؛ ولكن، كيف الحصول عليه دون لفت الانتباه؟ سيانور البوتاسيوم؟ سهل استعماله، يمزج السم بقرص من الأقراص التي يتناولها السفير كل ليلة من أجل الهضم. وتعاد الأقراص الشبيهة بحجر النرد الى الزجاجة. ليس علينا إلا الانتظار. اليوم، لم يحدث شيء. سيكون غدا. بقي فقط ثلاثة

أقراص. وحين يبقى قرصان اثنان سنهيء كل مايتعلق بالدفن، وكذلك الأشرطة والأوسمة التي سيحملها الميت معه. وحين يبقى قرص واحد؟ ليلة انفعال لايوصف. ولكن، من يذهب لإحضار السيانور؟ أيباع في المحلات؟ ربما كان الكورار هو السم النموذجي، الذي لايترك آثاراً في العضوية. وخزة بإبرة مجوفة فيقع الشخص ميتاً لتوه، دون أن يقدر على التنفس بسبب شلل في عضلاته ورئتيه. ولكن للحصول على الكورار الذي يحفظ في أوعية صغيرة من القرع، ينبغي الوصول الى أراضي الهنود الغواتشيناباس. ويحتاج المرء الى شهر على الأقل، ليصل متنقلاً من قارب الى قارب. تبكي معها على تعاستكما المشتركة، لشعوركما أنكما جد عاجزين. ماأسعدنا لو كنا نقف قرب حافتي نعش! تقترب من النافذة. توقف اطلاق النار. ونقل الجرحى- أو الموتى ربما. ولقد حطمت زجاج واجهة محل الألعاب طلقة نزلت بالبطة دونالد من قاعدة العمود مخلفة ثقباً صغيراً أسود في صدرها. واليوم عيد الأبطال، فلايوجد في المحل من يصلحها. ظلت مقلوبة وراحتاها البرتقاليتان الى الأعلى.

٧- نحو يوم ثلاثاء

لما حل موسم الأمطار كانت العلاقات بين هذا البلد والبلد المجاور قد تدهورت. عاد صراع الحدود ليشتعل ومعه العواطف أيضاً. ولكن الجنرال مابيان عبأ جميع أجهزة الدعاية ومكاتب الرقابة للتخفيف من الاندفاعات الحربية. في الواقع، لم يكن يؤمن بارسال فرق عديدة الى الحدود تاركاً الجبهة الداخلية مكشوفة، لأنه كان يحتاج الى جيش قمعي داخلي ليفض المظاهرات ويحطم الاضرابات ويفرض حظر التجول، ويدك البيوت والمنشآت ويسير الدوريات في الشوارع.. الخ.. وللسبب ذاته، تحول زهوه القديم على البلد المجاور الى سياسة من التسامح

والتعاون. «لامشاكل دولية»، كان يقول ناهيك عن أن الولايات المتحدة حصلت على امتيازات في منطقة النزاع. كان الموقف مشوشاً حتى استدعي السفير من وزارته ليقدم تقريراً شخصياً. سيكون سفراً لمدة خمسة عشر يوماً، على الأكثر. أعدّت له السيدة السفيرة حقائبه بود عجيب. وفي اليوم التالي ذهبت الى المطار لتوديعه وهي تلاحظ برضا أن الطائرة من طراز قديم مع كل الدلائل أنها قد تسقط. إنها النموذج الذي يسميه عمال الصيانة: النعش الطائر.

في اليوم التالي، قَدِم القنصل لزيارتي: «إنك الآن من أبناء وطني» قال ذلك، وهو يعانقني ويعطيني أوراق جنسيتي الجديدة. من الآن فصاعداً، سيكون شعاري- أراه مطبوعاً على جميع الوثائق المسلمة- النمرين اليقظين المتظاهرين بالنوم على قطع مثلث ذهبي، جلي أنه من أصل ماسوني، اذا اعتبرنا أن رئيس المحفل الأعظم لبلدي الجديد كان في أوروبا أمير الفرسان العقليين. «لكن هذا ليس كل شيء»، شرع القنصل يقول بلهجة تختلف عما قبل، إن برزانة الصوت، أم بايقاع الكلمات. كان يتكلم ببطء: «خلال هذه السنوات أعلمت وزارتي حول جميع أعمالك: نزاع الحدود، زيادة التجارة، مبادلات مثمرة للبضائع الخ.. الخ.. إنهم يطّلعون على كل مافعلته من أجل بلدي الذي لم يكن بلدك بعد. هذا الغبي (مشيراً الى مقعد السفير) لم يصلح لشيء أبداً، وإنهم يعرفون ذلك. لذلك (مرخّماً صوته) ستعين سفيراً لبلدي مكانه». وازاء اعتراضاتي، أعلمني السيد القنصل أنه في بلده- بلدنا- لاتسند مناصب السفراء عامة الى دبلوماسيين محترفين، ولكن الى رجال بارزين أو قديرين: كتاب، ورجال مال، شخصيات معروفة، وصحفيين. أضف

الى ذلك، هناك تقليد آخر في أمريكا تستخدم فيه -دبلوماسياً وتعليمياً- شخصيات تنتمي الى شعوب القارة.

وهكذا فاننا وجدنا وزراء كوبيين في امريكا الوسطى. فأندريس بيو الفنزولاني كان عميداً لجامعة تشيلي. أتذكر . . . قطعت التعداد المتوقع: «لكنهم لن يمنحوني الموافقة». «مع رغبات الجنرال مابيان في أن تبقى علاقاته حسنة مع بلدنا، وسعيه الآن ليسحب ١٥٠ مليون دولار من التحالف من أجل التقدم، فانه سيمنح موافقته الى / وصلة الخدمة المشتركة/ (ضحك)» «لكن السفير، السفيرة. . .» «السفير استدعي في الحقيقة لنقله الى غوتنبرغ كرجل قنصلي عادي. أما بشأن السفيرة، إن لم تعترض، فيمكن أن تبقى هنا كسكرتيرة في السفارة».

أُعطيت الموافقة دون تأخير. وخرج اللاجىء يوم الثلاثاء التالي ليقدم أوراق اعتماده الى الجنرال مابيان. وقدّم حارسا الباب في اليوم الأخير لخفارتهما، له السلاح. كانت سترة السيد السفير ملائمة له الى حد مقبول. أما القبعة فكان لابد من حشو بطانتها بأوراق الصحف. ولابد من حمل القفازات باليد اليسرى كباقة من الهليون، نظراً لضيقهما الشديد. ومع ذلك، كان كل شيء رائعاً اليوم: سيارة السفارة، حديث مقدم السفراء التافه. اليوم ثلاثاء. الثلاثاء، الثلاثاء، الثلاثاء. الثلاثاء في ٢٨ حزيران. ٢٨ حزيران! شهر يرنّ اسمه ملء الشواطىء والفضاء الرحب. وصل اللاجيء السابق الى قصر ميرامونتس يرافقه مقدم السفراء. لم يجب على نظرة راتون الحزينة المتوسلة، التي كانت تبحث عن نظرته. أقيمت المراسم التكُريمية، ودخل مكتب الجنرال مابيان. واستقبل استقبالاً ودياً. ومثّل الجنرال الكوميديا اللطيفة بقراءة أوراق الاعتماد المكتوبة

لكل الأحوال وفي جميع البلدان تقريباً بطريقة تكاد تكون متطابقة. ثم ألقى خطاباً قصيراً تحدث فيه عن الصداقة الأبدية بين الشعبين وعن الخير في تفاهمهما الآن، وهما على عتبات عصر من الرفاهية لكليهما، وعن أمجاد الماضي المتبادلة وعن الأخوّة التي تربط بين البلدين، والأخوة المتزايدة منذ الآن فصاعداً، وعن أشياء أخرى من هذا النمط. وأجاب السفير بالعبارات ذاتها عن «الرفاهية» «والصداقة»، «والتفاهم»، والأخوة و«بلدنا امريكا» وقارة المستقبل، وعن الحل الثالث للصراعات الايديولوجية لهذا العصر، الصادر عن حكام العالم الجديد الحكماء، وعن كل مايسمع في مناسبة مشابهة. وقُرع كأسان من الشمبانيا نخب رفاه البلدين. ثم تلاها مصافحة قوية وشوش خلالها مابيان في اذن السفير الجديد: لم أدعُ المصورين. كان ذلك صعباً. سأرسل مذكرة صحفية، يظن بها أن الأمر يتعلق بتناظر في الأسماء». «إني أقدر ذلك سيدي الجنرال». وخفض الجنرال صوته أكثر من ذي قبل: «أنت تيس صغير ياريكاردو». «وكيف حال النساء الأوروبيات، والأنيقات، الناعمات الشيقات الحديث؟ سيدي الجنرال». «عليك اللعنة»!

اقترب مقدم السفراء ليشير الى أن الزيارة الدبلوماسية انتهت. رجع السفير القهقرى الى الباب وهو يقوم بانحناءة عند كل خطوة. ولما صار في الخارج أزاح الستارة قليلاً ومد رأسه قائلاً: «تشاو فيليب».

كانت السيدة السفيرة تنتظرني مع غداء ناعم من الأطايب والخمور. لم ينقصنا الخيار الروسي المخلل، الذي أحبه جداً، ولاالمانغا، ولاالكبار الفرنسي مع خمر قصب السكر البرازيلي. أما البطة دونالد الجريحة فقد أبدلت بأخرى سليمة. ولكن صورتها أصبحت لاترتبط لدي بفكرة الأبدية. ولامصابيح أديسون في محل غوميزا خوان،

لم تعد تثير فيّ صورة مينلوبارك، كما كانت بالأمس. نزعت الأوراق الميتة من المذكرة ووضعتها على ٢٨ حزيران. كانت بدأت أزمنة أفضل. ولما انقبضت من كؤوس النبيذ البرازيلي التي تناولتها على عجل، تسربت الى داخل غرفة الطعام كلمات النشيد اللاتيني.

حول الملك في مخدعه

تنتشر رائحة النرجس الرقيقة.

وقد اخمدناها بمساعدة بوق أرمسترونغ المنبعث من الراديو.

وفي اليوم التالي عانيت كثيراً من التفكير في أني أعيش يوم أربعاء. وأن الأربعاء له التزاماته. لكن الأيام عادت منذ الخميس بأسمائها لتنخرط ضمن سلك الزمن المعطى للإنسان. وعادت الأعمال والأيام.



الهاربان

كان الأثر يندثر عند أصل الشجرة. حقاً كانت تعبق بالهواء رائحة زنجي قوية، تفوح كلما أثار النسيم الذباب الذي يعمل في فجوات الثمار المتعفنة. ولكن الكلب- لم يطلق عليه أحد أسماً غير الكلب- كان تعباً. تمرّغ بين الأعشاب ليسند ظهره ويرخي عضلاته؛ وبعيداً جداً كان صراخ كلاب الدورية يتلاشى في المساء. كانت لاتزال رائحة الزنجي عابقة. ربما كان الآبق مختفياً، فوق -في مكان ما، ممتطياً غصناً وهو يتنصت بعينيه. ومع ذلك، أصبح الكلب لايفكر بالمطاردة؛ كانت هناك رائحة أخرى في الأرض المغطاة بأعشاب متسلقة قد يأتي عليها حصاد قادم الى الأبد. إنها رائحة أنثى، رائحة التقطها الكلب من ظهره وهو ينفتل حول نفسه، وأرجله الى الأعلى، كاشفاً عن نابيه متيحاً بذلك للسان قصير جداً أن يمتد الى حفرة بين كاهليه.

الظلال أصبحت أكثر رطوبة. استدار الكلب واقفاً على قوائمه. دقت أجراس المزرعة تطير على مهل جاعلة أذنيه تنتصبان. وفي الوادي كان يرين ضباب ودخان راكد أزرق يطفو فوق أشياء تبدو كالظلال:

مدخنة من الآجر، سقف ذو أجنحة كبيرة، برج كنيسة وأضواء تبدو كأنها تتلألأ في قاع بحيرة. لكن رائحة الانثى كانت هناك. أحياناً كانت رائحة الزنجي تغمره. غير أن رائحة رغبته الذاتية التي تستدعيها رغبة أخرى كانت تطغى على ماعداها. مدّ الكلب رجليه الخلفيتين بشكل جعله يمط رقبته. كان بطنه يخفق تحت الأضلاع على إيقاع لهاث قصير ومضطرب.

والثمار اليانعة كانت تسقط هنا وهناك بضوضاء مبللة ناثرة على وجه الأرض دفقاً من اللب الدافىء. أخذ الكلب يجري نحو الجبل، خافضاً ذيله، كأنّ كلاب الوكيل تطارده مخالفاً بذلك حاسته الخاصة بالتوجه. صار الكلب رائحة أنثى. كان خطمه يتبع أثراً غامضاً يلتف أحياناً حول نفسه أو يترك الدرب ويشتد في أشواك الشجيرات أو يضيع في الأوراق التي زادها التخمر حموضة. (أو يبعث هذا الأثر بقوة غير متوقعة على قليل من الأرض عليها مسحب ذيل). وفجأة حاد الكلب عن الدرب المخفيّ، عن الخيط الذي يتلوى وينبسط لينقض على نمس. وبضربتين رنّتا مثل الصناجات في الكف، قصم عموده الفقري وهو يقذف به على جذع شجرة.

توقف الكلب، فجأة، رافعاً احدى قوائمه. كانت تهبط من الجبل أصوات نباح بعيدة جداً. لم تكن تلك كلاب المزرعة. فنبرتها كانت مختلفة، فهي أكثر خشونة وتقطعاً كأنها خارجة من قاع الحلق تغذيها ضوار قوية. في مكان ما كانت معركة ناشبة بين ذكور لاتحمل ككلبنا طوقاً من الابر النحاسية مع لوحة مرقمة. ازاء هذه الأصوات المجهولة والأشد ضراوة مما سمعه حتى الآن أحس بالخوف. فشرع يركض باتجاه معاكس حتى طلع القمر. لم تعد الرائحة رائحة أنثى، إنها رائحة زنجي. وبالفعل، كان الزنجي بسرواله المخطط، منبطحاً على الأرض. كاد الكلب ينقضّ عليه مسترشداً بعلامة وُسِم بها في وقت باكر وسط عاصفة من السياط تلقاها هناك حيث القدور ومفارش القش.

كان عراك الذكور مستمراً في مكان عال لايعرف أين. قرب الآبق بقيت عظام أضلاع مجردة. راح الكلب يدنو ببطء وأذناه متشككتان مصمماً أن ينتزع من النمل بعضاً من مذاق اللحم.

عدا ذلك، فان الكلاب الأخرى التي تنبح بضراوة كانت تخيفه. فالأفضل أن يمكث الآن قرب الرجل ويتنصت. كفّت الجنوب، مع ذلك، أن تحمل اليه التهديد. دار الكلب حول نفسه ثلاث دورات وتكوّم مستسلماً. ركضت أرجله حلماً سيئاً. وعند الفجر رمى الآبق يده فوقه بحركة من نام مع النساء كثيراً. واقترب الكلب من صدره باحثاً عن الدفء. كلاهما كان في حالة فرار يشل أعصابهما كابوس واحد.

والعنكبوت التي كانت قد نزلت لترى رؤية أفضل، لمّت خيطها وضاعت بين أغصان اللوزة التي شرعت أوراقها تطلع من الليل.



استيقظ الآبق والكلب، كعادتهما، لما دقت أجراس المزرعة. وحين اكتشفا أنهما ناما معاً، جسداً الى جسد، انتفضا بقفزة واحدة. وبعد أن استند كل منهما الى جذع شجرة طفقا ينظران الى بعضهما طويلاً. الكلب يعرض نفسه ليتخذ من الآبق سيداً، والزنجي من جهته كان قلقاً لاستعادة صداقة ما. كان الوادي يتمطّى. جواباً على قرع الأجراس المرهق الموجّه للعبيد، يتردد الآن بطيئاً نغم متناسق من الكنيسة التي تميس أشجارها من الظل الى الشمس على أرضية من الخوار والصهيل كتحذير متوسّل لأولئك الذين ينامون في أسرة عالية من خشب الكاأوبا. الديكة تلف حول الدجاجات لتغشاها باكراً كي تتأكد خنصر زوجة الوكيل من وجود البيض قبل وضعه. والديك الرومي يدور في الباحة وهو يشتعل صارخاً في كل دورة ورجعة. أما جياد المعصرة فكانت تبدأ سفرها الطويل وهي تدور. والعبيد كانوا يبتهلون أمام حلل مملوءة بالخبز مع عصير السكر. فتح الآبق فتحة سرواله تاركاً طفحاً من الزبد حول جذور شجيرة. أما الكلب فقد رفع رجله فوق عشبة غضّة. أخذت تظهر ضربات

المناجل وهي تقطع. وكلاب الصيد الخاصة بالزنوج تهز سلاسلها قلقة لتخرج من أكواخها.

سأل الآبق- أتذهب معي؟

تبعه الكلب طائعاً، فمن يعد الى هناك يجد بانتظاره سيلاً من السياط ومزيدا من السلاسل. لم تعد الرائحة رائحة أنثى أو رائحة زنجي. إنها رائحة أبيض. أصبح الكلب الآن أكثر حذراً إزاء رائحة الأبيض، رائحة الخطر. لأن للوكيل رائحة بيضاء على الرغم من ثيابه المكوية المنشّاة، ورغم الرائحة الحادة لدهان حذائه المصنوع من جلد الخنزير. انها الرائحة نفسها لسيدات البيوت على الرغم من رائحة العطر التي تفوح من مساكبهن. وهي رائحة الخوري على الرغم من دخان البخور والشموع المذابة، التي تجعل، مع ذلك، ظل الكنيسة، وهو الطريّ، كريها. إنها رائحة عازف الارغن على الرغم من النفخات التي تزفرها منافيخ آلته كرائحة الصوف العتيق. اذاً، ينبغي الفرار من الرائحة البيضاء. وغيّر الكلب معسكره.



في الأيام الأولى على الأقل، فقد الكلب والآبق، وفرة الطعام. كان الكلب يتذكر العظام التي تفرغ من الحلل في الاخصاص عند المساء. والآبق كان يتلهف للطعام المحمول في جفنات كبيرة الى الأكواخ بعد أن تدق ساعة الصلاة، أو تسكت طبول الأحد. ومن أجل هذا، دأبا على الانطلاق الى الصيد منذ الفجر، وذلك بعد أن شبعا من النوم في الأصباح التي خلت من قرع الأجراس واللكمات.

حين كان الكلب يتشمم رائحة جرذ مختبىء بين أوراق أرزة ما، فان الآبق كان يسقطه رمياً بالحجارة. واذا ماعثرا على خنزير بري فكانا

يقضيان ساعات وساعات في مطاردة الحيوان الذي تتمزق أذناه ويبهره هذا النباح الشديد ويتهاوى عند أسفل صخرة وينهار تحت الضرب.

شيئاً فشيئاً نسي الكلب والآبق الأوقات التي يأكلان فيها بانتظام. كانا يلتهمان مايقع تحت أيديهما مرة واحدة آتيين على معظم مايمكن منه، خوفاً من أن تمطر غدا ويغمر الماء الوادي كلّه. كان الكلب، لحسن الحظ، يعرف أكل الثمار. وحينما يعثر الآبق على شجرة مانغا أومامي كان خطم الكلب يتخضب باللون البني والأحمر. فاذا أضفنا الى ذلك، كونه من أكلة البيوض دائماً فان عشاً من أعشاش السمان كان يغنيه عن المحار الذي يرغب فيه سيده رغبة لايفهمها، محار يرقد في مجرى معاكس للتيار عندما يتفجر النهر بفم من الحلزونات المتحجرة.

كانا يعيشان في كهف مستور جيداً بستارة من نبات الخنشار. والنوازل كانت تبكي بإيقاع واحد وتملأ الظلال الباردة بضجيج الساعات. ذات يوم أخذ الكلب يحفر أسفل الجدران. وسرعان ماانتشلت أسنانه عظماً وأضلاعاً رمّة فقدت طعمها، وتفتت على لسانه بنكهة الغبار المعجون. ومن ثم، حمل الى الآبق المتّزر بنطاق من جلد الأفعى، جمجمة بشرية. مليء هذا رعباً من وجود موتى في مسكنه، فغادر الكهف ذلك المساء نفسه مردداً صلوات ودون أن يبالي بالمطر، متخلياً عن بعض الأواني الفخارية والحجارة الصقيلة التي كان يمكن أن يفيد منها. ناما كلاهما بين جذور ونباتات تغشاهما رائحة كلب مبلول. وفي الصباح بحثا عن كهف سقفه أكثر انخفاضاً حيث ينبغي على المرء أن يدخله حبواً. فعلى الأقل لم تكن توجد هنا عظام لاتصلح لشيء إلا أن تجلب متاعب وأشباح أمور سيئة. انقضى زمن دون أن يشهدا فيه مطاردة، فأخذا يغامران بالاقتراب من الطريق.

أحياناً كان يمر سائق عربة معروف أو راهبة ترتدي لباساً دينياً، أو

عازف قيثار من أولئك الذين يعرفهم رئيس كل قرية. كانا يتأملانهم من بعيد صامتين. دون شك كان الآبق يتوقع شيئاً ما. فكان يقضي ساعات مختلفة، مكتوف اليدين بين الأعشاب وهو يرقب هذا الطريق الذي قلما يسلكه أحد ويستطيع ضفدع أن يعبره بقفزة كبيرة. كان الكلب في تلك الأثناء، يلهو بتشتيت عش من الفراشات البيض أو يحاول عبثاً أن يصطاد قفزاً عصفوراً صغيراً مذهباً.

ذات يوم كان الآبق ينتظر شيئاً لم يكن يأتي، واذا بوقع حوافر جعله يقف على قدميه. انها عربة قادمة بسرعة يجرها كديش المزرعة المرقط. كان السوط يفرقع بيد السائس غريغور الواقف على المحمل، بينما كان الخوري يهز جلبابه على كتفه. منذ زمن بعيد لم يله الكلب بمسابقة الجياد. فنسي الحذر الذي كان مفروضاً عليه، وهبط السفح على أرجله الأربع ممشوق الجسم أزرق تحت الشمس، فبلغ العربة وأخذ ينبح في عراقيب الكديش يميناً ويساراً ومن الأمام، ماراً ومعترضاً مكشراً عن أنيابه للسائق ولرجل الدين. أخذ الكديش يراوح في مكانه وهو يهز كمامته ويدفع اللجام من فمه وسرعان ماحطم إحدى الحوامل نازعاً عريش العربة. أما السائس والخوري اللذان ملئا رعباً فقد ارتطم رأساهما بحافة صخرة وتخضب التراب بلون الدم.

وصل الآبق راكضاً. كان يهز عصا بيده ليجلد الكلب الذي انسحب طالباً الصفح. لكن الزنجي توقف وقد جاءته فكرة مفاجئة بأن هذا الأمر ليس كله سيئاً. فاستولى على جلباب الخوري وثيابه وعلى سترة السائق وحذائه. ومن جيب الى جيب عثر على خمسة دوروس[1] ناهيك عن الأجراس الفضية. رجع اللصان الى الجبل في تلك الليلة؛ تلفح الآبق بالجلباب وأخذ يحلم بلذات منسية. تذكر القناديل الملأى بالحشرات

(١) ضرب من العملة

الميتة التي تلمع حتى وقت متأخر في آخر بيوت القرية، حيث سُمح له مرتين أن يطلب خرجية العيد وينفقها حسبما يشاء. ومنذئذ اختار الزنجي طريق النساء.



شد الربيع عليهما الخناق منذ الصباح. فقد استيقظ الكلب ورجلاه الخلفيتان متقلصتان تقلصاً لايطاق، وعيناه معتكرتان. كان يلهث دون أن يكون فيه محموماً، باسطاً بين نابيه لساناً عليه خطوط ناعمة حمر. أما الآبق فكان يكلم نفسه. كلاهما كان مزاجه سيئاً. ذهبا باكراً الى الطريق دون أن يفكرا في الصيد. كان الكلب يركض على غير هدى باحثاً عن أثر رائحة. كما يقتل حشرات لايستسيغها أبداً، لذّة في التخريب ويفرط سنابل بين أسنانه ويقتلع شجيرات غضة. وقد ثارت ثائرته لما ارتطم ضفدع بعينيه.

أما الآبق فقد انتظر كما لم ينتظر من قبل. ولكن أحداً لم يمر في الطريق ذلك اليوم.

ولما حل الليل وأخذت الحباحب الأولى تطير كحجارة مقذوفة فوق الحقل شرع الآبق يسير متأنياً نحو بيوت المزرعة. تبعه الكلب متعرضاً لأخطار الحرس ذاته والسلاسل ذاتها. اقتربا من الأكواخ عبر حوض القصب. لقد اشتما رائحة كانت أليفة لهما من قبل، رائحة حطب محروق، رائحة ماء الغسيل وبرادة حوافر الخيل. ، لاشك أنهم يصنعون عجينة حلوى لأن عذوبة فائقة، كالمربيات، كانت تنتشر في المكان؛ كان الكلب والآبق مازالا يقتربان جنباً الى جنب، رأس الرجل على مستوى ارتفاع رأس الكلب. عبرت المنحدر، فجأة، زنجية تعمل في ورشة الحديد. انقضّ عليها الآبق ورماها أرضاً بين الأعشاب، ثم تولّت يد كبيرة خنق صرخاتها. تقدم الكلب وحده حتى أطراف الأكواخ. هناك

كانت الكلبة الانكليزية التي جلبها مارسيال من معرض في باريس. حاولت الفرار لكن الكلب قطع عليها الطريق، وقد انتصب شعره من الذيل الى الرأس. كانت رائحة الذكورة فيه طاغية حتى نسيت الكلبة الانكليزية أنها غُسلت منذ ساعات بالماء والصابون. كانت الدجى قد انجلت لما عاد الكلب الى الكهف. أما الآبق فكان ينام ملتفاً بثوب الخوري. وفي النهار كان مانتيان[1] يخبطان بين الأقصاب معكرين التيار بقفزاتهما التي تنشر سحاباً من الزبد فوق الطين.

أصبح الآبق أكثر فأكثر، أقل حذراً. كان يدور الآن حول البيوت متربصاً في أي وقت بشغالة منفردة أو مترهبة تبحث عن كزبرة وزعتر من أجل غرض ما. وأصبح أيضاً جشعاً نحو العملة، منذ أن واتته الجرأة على أن يشرب بنقود الخوري في نُزل على الطريق. فقد استولى أكثر من مرة، حين يقطع الطريق، على زنار فلاح بعد أن يطوّح به عن حصانه ويسكته بعصا. كان الكلب يرافقه في هذه الغزوات ويساعده قدر المستطاع. ومع ذلك فقد كانا يأكلان أسوأ من ذي قبل. وصار لزاماً عليهما أكثر مما مضى أن يكتفيا ببيوض السمان أو مالك الحزين. علاوة على ذلك، كان الآبق في خوف دائم. فعند أقل نباح من الكلب كان يقبض على السيف الذي سرقه، أو يتعربش على شجرة. انقضت أزمة الربيع؛ كان الكلب يبدو كل مرة أكثر اصراراً على الاقتراب من البيوت. وكان الكثير من الأطفال يقذفونه بالحجارة، والكثير من الناس على استعداد دائم لرفسه بأرجلهم. واذا ماشمّت كلاب الأحياء رائحته مقترباً كانت تطلق صيحات الحرب. عدا ذلك، كان الآبق يعود، هذه الليالي، بخطو مترنح، ومن فمه تنبعث رائحة، كان الكلب يمقتها أكثر مما يمقت رائحة التبغ. ولذلك، كان

(١) المانتي: حيوان ثديي مائي يعيش في بعض أنهار أمريكا الجنوبية.

ينتظر صاحبه حين يدخل بيتاً سيء الاضاءة من مسافة حذرة. هكذا عاشا حتى الليلة التي لبث فيها الآبق طويلاً في غرفة بائعة هوى. وعلى حين غرة، حاصر الكوخ رجال ضخام يحملون سيوفاً لامعة. وبعد برهة أُخرج الآبق الى الشارع عارياً وهو يصرخ صرخات مفزعة. أما الكلب الذي أحسّ برائحة وكيل القرية، أخذ يعدو نحو الجبل عن طريق حقول القصب.

وفي اليوم التالي رأى الآبق يمر في الطريق. كان مغطى بجراح رُشّ فوقها ملح، والحديد في رقبته ورسغيه ويقوده أربعة عناصر من الشرطة يضربونه بالسيخ كل خطوتين شأنه شأن سارق أو سكير أو أفاق.



كان الكلب ينبح على القمر وهو يجلس على حافة صخرية تطل على الوادي. ففي بعض الأحيان كانت تستولي عليه كآبة عميقة حين كانت تلك الشمس الكبيرة الباردة تبلغ تمام استدارتها ملقية أضواء باهتة على النباتات. لقد ولّت عنه المواقد التي كانت في العادة تضيء الكهف في الليالي المطيرة. وقد لايعرف حرارة الأنس في الشتاء الذي كان يقترب، وقد لايجد من ينزع عنه طوق الإبر النحاسية الذي كان كثيراً مايزعجه متى ينام على الرغم من أنه ورث جلباب الخوري.

كان يصطاد باستمرار. ولكنه صار أكثر تسامحاً ازاء الكائنات التي لم تكن تصلح للأكل. كان يترك أفعى الماخا تهرب بين الحجار الدافئة، دون أن ينبح مع ذلك، لأن الآبق غير موجود هنا ليضربها أملاً في أن يصنع لنفسه نطاقاً من جلدها أو يستخرج منها زبدة للدهن. عدا ذلك فان رائحة الأفاعي كانت تضايقه. واذا ماأمسك بواحدة منها من ذنبها فذلك بدواعي الضرورات التي تجعل كائناً يرتبط بكائن آخر يرى نفسه ملزماً به. كما أنه

لم يعد يجرؤ -إلا في حالات الجوع القصوى- على مهاجمة الخنزير البري. صار يكتفي الآن بطيور مائية ونموس وفئران أو دجاجة هاربة من حظائر القرية.

لكنه نسي القرية، ودقات أجراسها فقدت أي معنى. صار يبحث عن ملجأ في القنن العالية التي لايكاد يبلغها انسان؛ يعيش في عالم من أشجار التنين التي تهزها الريح فتئط أطيط بردعة جديدة؛ عَالَم من نبات السحلب والشجيرات المتطفلة كالديدان، حيث تزحف جرذان خضر ذات آذان بيض، من تلك الجرذان ذات المذاق الرديء، والتي بسبب ذلك بقيت حيث هي. أصبح هزيلاً وعلى أضلاعه التي بانت بينها الحفر كان شعره يحبس ثماراً من الغياسو التي ذهبت عنها أشواكها.



عاد الربيع مع أزهار الاغينا لدو. ذات مساء، أجفل النومَ من عينيّ الكلب قلق غريب، فعثر مرة أخرى على تلك الرائحة العجيبة، رائحة الأنثى القوية النفّاذة التي كانت السبب الأول في هروبه الى الجبل. كذلك كانت أصوات نباح تهبط من الجبل هذه المرة. التقط الرائحة بصورة مؤكدة، ثم استعادها مرة أخرى لما عبر النهر سابحاً. لم يعد خائفاً. لقد تبع الأثر طوال الليل وأنفه لاصق بالأرض ولعابه يسيل من طرف لسانه. وعند الصباح كانت الرائحة تملأ الشعب بكامله. هاهو المتقفّي ازاء عصبة من الكلاب المتوحشة. كان بعض الذكور بملامح الذئاب تنحشر هناك، عيونها تلمع وأجسامها مشدودة فوق قوائمها للهجوم ووراءها كانت تنحصر رائحة الأنثى.

قفز قفزة كبيرة، فانقضت الكلاب البرية عليه؛ تشابكت الأجساد بعضها مع بعض في عاصفة من النباح المبهم. ولكن سرعان ماسمعت

الأنّات التي فتحتها ابر الطوق. امتلأت الأفواه بالدم وتمزقت الآذان. ما إن أرخى الكلب أكبرها بعد أن خلع حنجرته حتى تراجعت البقية وهي تزمجر بغضب غير مجدٍ. ركض الكلب الى وسط الحلبة ليشن المعركة الأخيرة على الكلبة الرمادية ذات الشعر القاسي التي كانت تنتظره كاشفة عن أنيابها. وراح الأثر يتلاشى تحت بطنه.



كانت الكلاب الوحشية تصطاد زمراً. لذلك كانت تبحث عن الطرائد الكبيرة الأوفر لحماً والأكثر عظاماً. فاذا ماعثرت على وعل، كان يشغلها عدة أيام. أولا: تأتي المطاردة ثم قطع الطريق عليه اذا مانجح الحيوان في اجتياز خندق بقفزة واحدة، ثم الحصار اذا ماوجد كهفاً في عونه. والحيوان بعد أن يُجرح ويطعن كان يقضي بين أسنان السرب التي تبدأ الوليمة على جسم مايزال حياً، وهي تقلع منه مساحات من الشعر الرمادي وتشرب دماً طرياً حاراً من شرايين الرقبة ومنابت اذن مخلوعة. لقد فقد أكثر من واحد منها عيناً نزعتها طعنة قرن. وكلها كانت مغطاة بندبات وجراح وأوبار حمر. في أيام الشبق كانت الكلاب تتصارع فيما بينها، في حين تنتظر الإناث نتائج الصراع وهي مستلقية بلامبالاة عجيبة.

لم تكن أجراس القرية التي تحمل الريح أحياناً نغماتها، تثير في الكلب أدنى ذكرى. التقطت الكلاب ذات يوم أثراً مألوفاً في هذه الغابات من الشجيرات المتسلقة والأشواك والنباتات الضارة التي تسمم اذا جرحت. إنها رائحة زنجي. اندفعت الكلاب زمراً زمراً عبر ممر ضيق حيث تنتصب صخرة قديمة تشبه وجه ميت. فقد اعتاد الناس أن يتركوا بقايا طعام حيث يمرون. ولكن الخير في الحذر منهم لأنهم أكثر الحيوانات خطراً بسبب وقوفهم على أرجلهم الخلفية التي تسمح لهم بمد

حركاتهم بعصي وأشياء. كفت الكلاب عن النباح وظهر الرجل فجأة، الرائحة كانت رائحة زنجي. كان لخطوه ايقاع تحدثه سلاسل محطمة معلقة برسغيه، وتحت زنار سرواله كانت ترن سلاسل أخرى أغلظ من الأولى. وعرف الكلب الآبق.

صاح الآبق: كلب؟ ياكلب؟

اقترب الكلب منه على مهل. شمّ قدميه دون أن يمسهما وأخذ يدور حوله وهو يهز ذيله. حين يناديه كان يفر؛ وحين يسكت كان يبدو أنه يبحث عن رنّة صوت بشريّ كان يسمعه قليلاً في أوقات أخرى. والآن يطرق سمعه نادراً ويخطورة تذكره بألوان الطاعة.

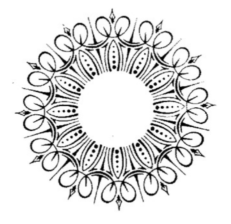
وأخيراً خطا الآبق خطوة وهو يمد يدا رقيقة نحو رأس الكلب الذي أطلق صيحة غريبة هي خليط من النباح الأصم والعواء. وقفز الى رقبة الزنجي. تذكر فجأة علامة قديمة كان يسم بها وكيل القرية كل عبد يهرب الى الجبل. لم تكن رائحة الانثى موجودة والزمان هادىء فنامت الكلاب مدة يومين من التخمة. أما النسور فكانت تجثم فوق الأغصان آملة أن ترحل العصابة قبل أن تنجز عملها. كان الكلب والكلبة الرمادية يلهوان كما لم يفعلا من قبل وهما يلعبان بقميص أزرق اللون. كان كل واحد منهما يشده من جهته ليجربا متانة أنيابهما. واذا انفتق مكان الخياطة تدحرج كلاهما فوق التراب، ثم يعودان من جديد للخرقة التي تصغر أكثر فأكثر، وهما ينظران في عيني بعضهما وانفاهما يكادان يتلاصقان.

أخيراً صدر أمر بالرحيل. وضاعت أصوات النباح في أعالي الجروف المشجرة. ظل سكان الجبال لسنين طويلة يتحاشون ليلاً ذلك المكان الخطر ذا العظام والسلاسل.

الفهرس

٢٠٠٠ ط١/١٢/١٩٩٨





طُبِعَ في مطَابِع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٨

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٢٠٠ ل.س